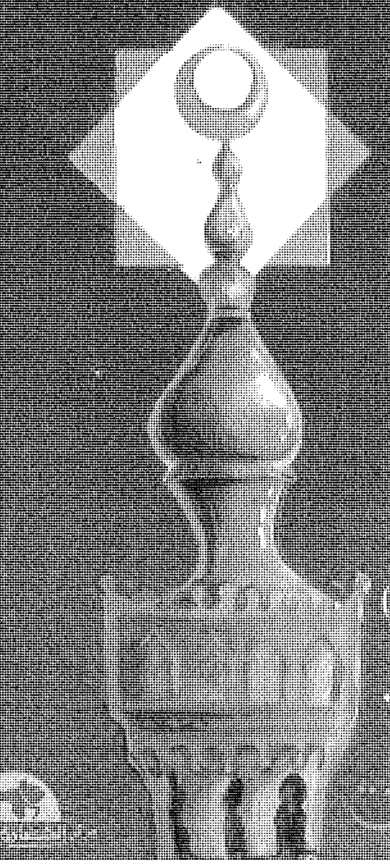
د . أحمد الصاوى

رمضان زمان



من الهلال والفانوس ومسحراتي (الرسول)
إلى القطائف والطرائف و (إدارة) الكحك المعمول .

رمضان .. زمان

مركز الحضارة العربية

★ مركز الحضارة العربية ، مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى ، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .

★ يتطلع مركز الحضارة العربية ، إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة

★ يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشرها وتوزيعها .

★ يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .

★ الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

رئيس المركز

على عبد الحميد على

رمضان .. زمان

المؤلف : د . أحمد الصاوى

الغلاف : ممدوح طلعت

الإخراج الداخلى : محمد الغليونى

الطبعة الأولى : يناير ١٩٩٧

الجمع والصف الالكترونى : مركز الحضارة العربية

الناشر :

٤ شارع العلمين - ميدان الكيت كات - جيزة

ت : ٣٤٤٨٣٦٨

رقم الإيداع :	٩٧/١٨٩٥
الترقيم الدولى :	I.S.B.N. 977-291-007-1

د . أحمد الصاوى

رمضان .. زمان

مركز الحضارة العربية

تقديم

لشهر رمضان رونقه وبهجته أينما حل فى بلاد المسلمين ، وعلى الرغم من أنه شهر لفريضة هى بين العبد وربه ، لا يعلمها إلا هو ونعنى بها فريضة الصوم ، إلا أنه وحده بين الشهور الهجرية الذى يحفل بالمظاهر الاحتفالية .

ففى كل ديار الإسلام يحرص المسلمون على زيادة الإضاءة حتى أن المؤرخ المقريزى ينعت ليالى رمضان بأنها "ليالى الوقود" ، ولا يقارب هذه الظاهرة فى الانتشار سوى عادة مد الولائم فى بيوت أهل الكرم ، وهاتين الظاهرتين هما فى حقيقة الأمر القاسم المشترك الأعظم فيما بين المسلمين أينما عاشوا خلال الشهر الكريم .

والقاهرة من بين حواضر الإسلام ، مدينة ولدت بها وترعرعت بعض من أهم المظاهر الاحتفالية فى رمضان وربما يعود الفضل فى الاحتفاظ بحيويتها وتحويلها إلى عادات مرعية لخلافة الفاطميين التى رعت هذه المظاهر بوصفها من رسوم الدولة .

ومعلوم أن المصريين ينظرون منذ أمد بعيد إلى رمضان بوصفه شهرا ينقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب الاهتمام الغالب على أنشطة الناس خلالها ، فالعشر الأول من أيام هذا الشهر هى "للمرق" أي للعناية بالموائد والأطعمة ، والتالية لها "للخرق" أى لشراء ملابس العيد أما العشر الأواخر فهى لكعك العيد الذى تتنافس الأسر فى صناعته .

وينقسم هذا الكتاب إلى جزءين مميزين ، يحوى الأول منهما موضوعات تتصل بالمظاهر الرمضانية الضاربة بجذورها فى أعماق تاريخنا بينما يشمل الثانى تلخيصا وافيا لبعض كتابات الرحالة الذين تصادف وجودهم فى رمضان ببعض ديار الإسلام ، وقد عنى هؤلاء بوصفهم غرباء طارقين بسرد أهم المظاهر التى استلفتت نظرهم فى البلاد التى ارتحلوا إليها أثناء شهر رمضان .

والذى لا شك فيه أن القارئ سيلمح دون كبير عناء أن رمضان اليوم هو إلى حد كبير "رمضان زمان" رغم كل تعقيدات الحياة ومحاولات المسخ الحضارى التى تشنها حضارة الغرب على أمة الاسلام قاطبة، وكأن رمضان هو قائد المقاومة وروحها فى هذه الأمة .. أهلا رمضان .

الناشــــر

هلال رمضان

كان المسلمون ، كما هو الحال اليوم ، يعنون برؤية هلال شهر رمضان عناية فائقة ويحتفلون بليلة الرؤيا أيما احتفاء ، ولم تكن تلك الحفاوة مقصورة على عامة المسلمين بل كان الخلفاء والأمراء فى طليعة المهتمين بالصعود إلى الأماكن العالية صحبة القضاة والشهود العدول لرؤية هلال الشهر الكريم.

وقد حافظت الأقطار الإسلامية المختلفة على تقليد بعينه فى ليلة الرؤية ألا وهو الإستزادة من إنارة المساجد عند رؤية الهلال ، فتعلق المصابيح بأعالي المآذن وعلى واجهاتها ابتهاجاً بمقدم رمضان .

ففى الحرم المكى كانت المشاعيل والشموع تبث فى كل أركانه حتى يتلألأ الحرم نوراً ويسطع ضياءً حسبما لاحظ ابن جبير فى رحلته إلى مكة عام ٥٧٨ هـ (١١٨٣م) ، ولا عجب فى أن القاضى القضاعى الذى عاش بمصر فى العصر الفاطمى ورأى بنفسه عظمة الحفاوة بهذا الشهر فى مصر حيث يعد رمضان بمكة من عجائب الإسلام الأربعة ، وهى : عرض الخيل بمصر ، ورمضان بمكة ، والعيد بطرسوس، والجمعة فى بغداد .

ولدينا من عهد الخليفة العباسى المأمون سجل أنشأه أحمد بن يوسف الكاتب العباسى إلى جميع العمال فى الأمصار لحض الناس على الاستكثار من المصابيح فى شهر رمضان وتعريفهم ما فى ذلك من فضل وقد جاء فى خاتمته « فإن ذلك أنساً للسابلة وإضاءة للمتهجدين ونفياً لمظان الريب وتنزيهاً لبيوت الله من وحشة الظلمة .

ومن الثابت أن بعض الخلفاء كانوا يصعدون بأنفسهم لاستطلاع هلال رمضان ، ومن بينهم هارون الرشيد الذى يذكر الأصمعى أنه صعد معه لرؤية الهلال وسأله عن معنى قول هند بنت قتبة :

نحن بنات طارق ∴ نمشى على النمارق

فقال الرشيد : الطارق : الكوكب الذى فى السماء . فقال الأصمعى أصبت يا أمير المؤمنين . فأمر له الرشيد بعشرة آلاف درهم .

وثمة نوادر حدثت فى ليالى الرؤية التى كانت تتم بالعين المجردة ، منها أن جماعة فيهم أنس بن مالك الصحابى ، حضروا لرؤية هلال رمضان ، وكان قد قارب المائة ، فقال أنس "قد رأيته هو ذاك

وجعل يشير إليه فلا يرونه .

وكان إياس القاضى حاضراً ، وهو أفطن أهل زمانه ، فنظر إلى أنس وإذا شعرة بيضاء من حاجبه قد أنثنت فوق عينه . فمسحها إياس وسواها بحاجبه ، ثم قال له : أنظر يا أبا حمزة فجعل ينظر ويقول لا أراه .

وحدث أن اجتمع الناس لرؤية هلال رمضان فكانوا يحدقون فى الأفق ولا يرون شيئاً ، فصاح رجل من بينهم : لقد رأيته . فاستعجبوا من قوة ابصاره وقالوا : كيف أمكنك أن تراه دوننا ؟!

فطرب الرجل لهذا الثناء وصاح : وهذا هلال آخر بجواره . فضحك الحضور منه . وطلبوا ليلة رؤيته فقال لهم أبو مهدية المضحك : كفوا فما طلب أحد عيب إلا وجده .

وصعدوا ليلة لنظره فلم يروه ، فلما هموا بالإنصراف رآه صبى وأرشدهم إليه فقال له أحدهم : بشر أمك بالجوع المضنى .

وقيل لرجل أما تنظر إلي هلال رمضان ؟ فقال : ما أصنع به ؟ "محل دين ومقرب حين « أجل » ومؤذن بالجوع" .

ونظر أعرابى إلى قوم يلتمسون هلال رمضان فقال : أما والله لئن أثرتموه لتمسكن منه بذنابى عيش أغبر !!

ولدينا فى تراث الشعر العربى ما يساير فحوى هذه الطرائف الأخيرة حيث نجد أن العديد من الشعراء القدامى لم يكونوا يلقون هلال رمضان بالبشر والحفاوة .

فها هو ابن الرومى يقول :

إنى ليعجبنى تمام هلاله ∴ وأسر بعد تمامه بنحوله

ويقول أبو الحسين بن سراج الأندلسى ، معتذراً إلى بعض أصدقائه :

وأنا أسأت فأين عفوك مجملاً ∴ هبنى عصيت الله فى شعبان

لـو زرتنى والآن تحمـد زورة ∴ كنت الهلال أتى بلا رمضان

فهو يجعله هلالا ولكن لغير رمضان .

ويقول بعض الشعراء أن هلال رمضان يحل بنحس على الكأس والعود :

تجلى علينا هلال الصيام ∴ بنحس على الكأس والبربط .

والحقيقة أن مجاهرة بعض الشعراء بعدم صيام رمضان والاستخفاف بمقدمه من الظواهر الملفتة فى تاريخ الأدب العربى ، وربما يدلنا ذلك على قدر الحرية التى كان يتمتع بها هؤلاء الشعراء حتى داخل بلاط الخلفاء .

فمن شعراء العصر الأموى نجد الأخطل ، وهو المسيحى الذى لا يطلب منه صيام رمضان يقول :

ولست بصائم رمضان عمرى ∴ ولست بأكل لحم الأضاحى

ولست بصائح فى جنح ليل ∴ كمثل العير حى على الفلاح

وأقبح من ذلك وأدل على رقة الدين وضعف اليقين والتهتك الصريح قول الشاعر العباسى ديك الجن الحمصى :

وحياة ظبى لم أصم عن ذكره ∴ إلا عضضت تندماً إبهامى

لأشافهن من الذنوب عظامها ∴ ينقد عنها جلد كل صيام

ويقول الأقيشر الشاعر ، وقد منعه ابن عم له يدعى سعيداً من شرب الخمر فى رمضان :

أما ترانى قد هلكت قائما ∴ رمضان أهلكنى ودين سعيد

ورغم أن الشاعر الكبير ابن الرومى كان يصوم شهر رمضان إلا أنه له أشعار غزيرة فى تصوير طول أيام الصوم منها

رمضان يزعمه الغواة مبارك ∴ صدقوا وجدك إنه لطويل

شهر لعمرك لا يقل قليله ∴ وكذا المبارك ليس فيه قليل

تتطاول الأيام فيه بجهدها ∴ فكأن عهد الأمس منه محيل

لو أنه للقاطنين مسافة ∴ لحسبت أن الشبر منه الميل

وهناك شعراء أقل شهرة لم تخل أشعارهم من التبرم بصوم رمضان يقول أحدهم :

الغوث من شهر الصيام ∴ إذ صار لى مثل اللجام

ما أن امتع بالنساء ∴ وبالطعام والمدام

ويقول آخر :

رمى رمضان شملنا بالتفرق ∴ فياليته عنا تقضى لنلتقى

لئن سر أهل الأرض طرا قدومه ∴ فأن سرورى بانسلاخ الذى بقى

ويقول ثالث :

ثقل الصوم علينا ∴ أثقل الله عليه

زارنى بالأمس بدر ∴ كنت مشتاقاً إليه

فمضى لم أقض منه ∴ حاجة كانت لديه

أما النوادر التي وردت في المصادر العربية حول مثل هذه المعاني السابقة فهي أكثر من أن تحصى عدداً . ومنها أن أعرابيا باشر الصيام فلما اشتد عليه أفطر فقالت زوجته أو بنته : ألا تصوم ؟ فأنشدها مجيبا :

أتأمرني بالصوم لأوردها ∴ وفي القبر صوم يا أميم طويل

وقدم اعرابي على ابن عم له بالحضر فأدركه رمضان فقيل له : لقد أتاك شهر رمضان . فقال: وما شهر رمضان ؟ قالوا : الإمساك عن الطعام . قال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا : لا ، بل بالنهار . قال : أفيرضون بدلا من الشهر ؟ قالوا : لا . قال : فإن لم أصم فعلوا ماذا ؟ . قالوا : تضرب وتحبس .

فصام أياماً ولم يطق أن يكمل الشهر فارتحل عنهم وهو يقول :

يقول بنو عمي وقد زرت مصرهم ∴ تهيأ أبا عمرو لشهر صيام

فقلت لهم هاتوا جرابي ومزودي ∴ سلام عليكم فاذهبوا بسلام

فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر ∴ علي ولا مناع أكل طعام

ومر رجل بأعرابي يأكل في رمضان ، فقال له : الا تصوم يا أعرابي ؟ فقال :

وصائم هب يلحاني فقلت له ∴ اعمد لصومك واتركني لافطاري

وأظمأ فإني سأروى ثم سوف ترى ∴ من ذا يصير إذا متنا إلى النار

ودخل عيينة بن حصن الفزاري ، وكان معروفا بالحمق على عثمان رضي الله عنه فقال له : هل لك في العشاء ؟ فقال : إني صائم . فقال عثمان : أمواصل ؟ قال : وما الوصال ؟ قال : تصوم يومك وليلتك ويومك حتى تمسي . قال : لا ولكني وجدت صيام الليل أيسر علي من صيام النهار .

وقدم أعرابي إلى الوالي فقيل له أنه أفطر في رمضان . فقال الأعرابي :

إن الله يعلم أني صائم ، ولكن وجدت حماوة في فؤادي فأردت أن أطفئها بجرعة ماء .

وعلى النقيض من ذلك فإن هناك من رحب بمقدم رمضان ورفع التهاني بحلوله إلى الخلفاء والأمراء والولاة .

يقول الشريف الرضي مهنئاً الخليفة الطائع لله العباسي :

تمن قدوم صومك يا أماما ∴ يصوم مدى الزمان عن الآثام

إذا ما المرء صام عن الدنايا ∴ فكل شهوره شهر الصيام

ويقول عبد الصمد بن بابك يهنئ الصاحب بن عباد :

كساك الصوم أعمار الليالى ∴ وأعقبك الغنيمة فى المآب
ولازالت سعودك فى خلود ∴ وتبارى بالمدى يوم الحساب

ومن الشعراء المحدثين الذين رحبوا بهلال رمضان ، محمد الأخضر السائحى الجزائرى حيث يقول :

أملأ الدنيا شعاعاً ∴ أيها النور الحبيب
قد طغى اليأس عليها ∴ وهو كالليل رهيب
فترامت فى الدياجى ∴ ومضت لا تستجيب
اسكب الأنوار فيها ∴ من بعيد وقريب

ذلك عن المواقف المتباينة من رؤية هلال رمضان والترحيب بمقدمة أو ملاقاته بغير الترحيب الواجب

أما عن وقائع الاحتفال برؤية الهلال ، فهى تبدو متشابهة فى أغلب الأقطار الإسلامية إذ كان القاضى يصحبه الشهود والأعيان والمشايخ يتجهون إلى الأماكن المرتفعة العالية لاستطلاع الهلال فى موكب حافل ويظل الناس فى الطرقات ينتظرون عودة هذا الموكب لتتعالى صيحات الفرح ومظاهر الاحتفاء به إذا ما ثبتت رؤية هلال رمضان .

وقد احتفظت المصادر التاريخية بمعلومات تفصيلية عن تطور مظاهر الاحتفال برؤية هلال رمضان فى مصر التى تعد من بين الأقطار الإسلامية القليلة التى عرفت فى احتفالها بليلة الرؤية أطواراً عدة نظراً لتقلب الدول المختلفة على حكمها من أمويين وعباسيين وفاطميين ثم أسرات كردية وتركية كالأيوبيين والمماليك والعثمانيين .

ويعد القاضى أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الذى ولى قضاء مصر . سنة ١٥٥ هـ أول قاضى يحضر لنظر الهلال فى شهر رمضان . وكان القضاة من بعده فى العصر العباسى يخرجون مع الناس إلى جامع محمود بسفح جبل المقطم لرؤية الهلال فى رجب وشعبان احتياطياً لشهر رمضان ، من فوق دكة أعدت لهم على مكان مرتفع بالجبل تعرف بدكة القضاة . واستمروا ينظرون الهلال من فوقها حتى دخل الفاطميون مصر ، فحولت الدكة إلى مسجد وانقطع القضاة عن رؤية الهلال من فوق جبل المقطم أو سواه من الأماكن العالية بالقاهرة .

ولا يعود انقطاع القضاة عن رؤية الهلال إلى اختفاء دكتهم الأثيرة وإنما إلى حقيقة أن الدولة الفاطمية ، الشيعية المذهب ، كانت تعتمد على الحسابات الفلكية فى تحديد بدايات الأشهر الهجرية وإن لم يمنع ذلك الفاطميين من تنظيم الاحتفالات بغرة رمضان .

فكان القضاة يجوبون جوامع مصر (الفسطاط) والقاهرة قبل ليلة رمضان بثلاثة أيام لتفقد ما تم

إجراؤه فيها من إصلاح وفرش وتعليق قناديل .

وبلغ اهتمام الفاطميين بإنارة المساجد فى شهر رمضان حدا لجأ معه الحاكم بأمر الله إلى صياغة تنور هائل من الفضة الخالصة لإضاءة محراب الجامع الأزهر فى ليالى رمضان ولم يستطع القومة إخراجه بعد إنقضاء الشهر الكريم إلا بعد هدم الحائط المجاور للباب .

وإذا ما حل أول يوم من رمضان خرج الخليفة الفاطمى فى حرسه ورجال دولته بأزيائهم الزاهية الألوان فى موكب ترتج له القاهرة إعلاناً بحلول شهر الصوم . وفى هذا اليوم تفرق دنانير الغرة التى تضرب من ذهب خالص لتفرق فى هذا اليوم إضافة إلى خرفان شواء وزبادى طعام وجامات حلوى وخبز وقطع منفوخة من سكر وأرز بلبن وسكر ..

وما أن زالت دولة الفاطميين حتى عاد القضاة إلى استطلاع الهلال من فوق قمم المآذن . وتعد مئذنة المجموعة التى شيدها المنصور قلاوون المملوكى بالنحاسين المرقب الرئيسى الذى كان القضاة فى القاهرة يستطلعون من عليه هلال رمضان . ورغم أن هذه المئذنة لم تكن بحال من الأحوال الأكثر ارتفاعاً بين مآذن القاهرة إلا أن مواجهتها للمحكمة الصالحية حيث كان يجلس القضاة قد منحها شرف الارتباط باستطلاع أهلة الأشهر الهجرية .

وكانت طوائف الشعب المختلفة تشارك القضاة فى رؤية الهلال وخاصة التجار ورؤساء الطوائف والصناعات وأهالى الحارات ، فإذا تحققوا من رؤيته أضيئت الأنوار على الدكاكين وخرج قاضى القضاة فى موكبه تحف به الفوانيس بالشموع والمشاعل حتى يصل إلى داره ثم تتفرق الطوائف فى أحيائها معلنة الصيام .

وقد أمدنا الرحالة المغربى ابن بطوطة بوصف شيق لاستطلاع هلال رمضان فى مدينة أبيار بوسط الدلتا عندما مر عليهما فى رمضان عام ٧٢٧ ه (١٣٢٧م) حيث يقول : "ولقيت بأبيار قاضيها عز الدين المليجى الشافعى وحضرت عنده يوم الركبة وهم يسمون بذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه أن يجتمع فقراء المدينة ووجهوها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين من شعبان بدار القاضى ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة لاستقبال الوافدين فإذا أتي أحد الفقهاء أو الأعيان تلقاه ذلك النقيب ومشى بين يديه مقدماً إياه قائلاً «بسم الله سيدنا ...» فيسمع القاضى ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب فى الموضع اللائق به ، فإذا تكاملوا هناك ركب القاضى وركبوا معه وتبعهم جميع من فى المدينة من الرجال والنساء والصبيان حتى يصلوا إلى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال فإذا ما رأوه يعودون إلى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ، ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضى إلى داره ثم ينصرفون وهكذا يفعلون كل سنة»

وإبان العصر المملوكى كان السلطان يجلس فى مستهل الشهر بالميدان تحت قلعة الجبل لاستعراض

أحمال الدقيق والخبز والسكر والغنم والأبقار المخصصة لصدقات رمضان بعد أن يكون محتسب القاهرة قد عرضها فى الشوارع الرئيسية .

أما فى العصر العثمانى فقد كان القضاة يخرجون عند ثبوت الرؤية فى موكب شعبى تشارك فيه طوائف الحرف ، وقد لبس أعضاء كل طائفة ملابسهم المميزة وبأيديهم نماذج من منتجاتهم بينما ينطلق جنود الانكشارية من طائفة مستحفظان المسئولية عن أمن العاصمة إلى الشوارع والأزقة وهم يصيحون "يا أمة خير الأنام ... بكرة من شهر رمضان صيام . صيام .» وفى حالة عدم ثبوت الرؤية كان النداء يتغير إلى غداً من شهر شعبان .. فطار .. فطار»

وخلال عصر محمد على وحتى مشارف القرن العشرين استمرت حفلات طوائف الشعب تشارك فى احتفالات استطلاع هلال رمضان بعدما انتقال اثبات الهلال إلي المحكمة الشرعية .

فيخرج الموكب من محافظة مصر إلى المحكمة الشرعية تتقدمه الموسيقى والجنود بطبولهم حتى إذا ثبتت رؤية الهلال تطلق الصواريخ والألعاب النارية وتطلق المدافع وتضاء المآذن ثم يمر موكب الرؤية فى أنحاء القاهرة معلناً الصيام .

واشتراك مشايخ الحرف فى هذا الموكب كان يتم فيه تمثيل التجارات والصناعات على عربات يتبارى أصحابها ، كل فى إظهار تجارته أو صناعته مثل مواكب الزهور . فهى من قبيل الدعاية والدعابة ، وفيها ما يثير الاعجاب وفيها ما يثير الضحك . وكان الشعب عن بكرة أبيه يخرج لمشاهدة هذه المواكب .

وقد تحول الموكب إلى عمل رسمى يقوم به الجنود دون سواهم بعد قرار الحكومة فى بدايات هذا القرن بالغاء التنظيمات النقابية لطوائف الحرف إذا إنفرط عقد هؤلاء وابتلعتهم آلية الحياة الحديثة ، وفقد الموكب بالتالى أهم صفاته التقليدية .

☾ ☾ ☾

السحور والمسحراتي

السحور ، بفتح السين ، ما يؤكل وقت السحر وهو قبل الفجر ، والسُحُور بالضم فعل الصائم نفسه ، وتسحر أيضاً بمعنى أكل السحور . ولما كان سحور رمضان يقع أواخر الليل حين تهدأ الجوارح وتقر الجنوب فقد اتخذت الوسائل قديماً وحديثاً لتنبيه الصائمين لوقت التسحر وبخاصة أن صحة الصوم تتوقف على معرفة نهايته بالتحديد الدقيق .

وكان المسلمون فى عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعرفون جواز الأكل والشرب بآذان "بلال" ويعرفون المنع بآذان «ابن أم مكتوم» وقد جاء فى الحديث الشريف أن بلالا ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم» .

وعلى الدوام كانت مآذن المساجد المكان الأثير للتسحير ، سواء عن طريق آذانين لمؤذنين يختلف صوتهما اختلافاً بينا تأسيساً بما كان يحدث فى عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو عن طريق النداء بصيغ خاصة تختلف من بلد إلى آخر . ففى مصر على سبيل المثال كان المؤذنون بالمسجد الجامع ينادون تسحروا وكلوا واشربوا ثم يقرءون قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» ويكررون ذلك عدة مرات . ثم يقرءون قوله تعالى «إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا إلى قوله تعالى «إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا» ثم يعقبون ذلك بانشاد القصائد .

وقد جرى العرف أن يقوم المؤذنون بالتسحر على أربع مرات أو تذكيرات فيقولون فى الدور الأول من التذكير

أيها النوام قوموا للفلاح

واذكروا الله الذى أجرى الرياح

إن جيش الليل قد ولى وراح

وتدانى عسكر الصبح ولاح

اشربوا عجلى قد جاء الصباح

وفى التذكير الثانى يقولون كلوا رضى الله عنكم ، كلوا غفر الله لكم ، كلوا مما فى الأرض حلالا

طيبا . كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور »

أما فى التذكير الرابع والأخير فيرددون «اشربوا وعجلوا فقد قرب الصباح الدعاء فى الأسحار مستجاب ، اذكروا الله فى القعود وفى القيام وأرغبوا إلى الله تعالى بالدعاء والثناء .

وفى المغرب كان بعض أهله ينفخون فى النفير على منارات المساجد سبع مرات . ثم ينفخون فى الأبواق بعدها سبعاً أو خمساً ، فإذا انقطعوا عن ذلك انقطع المتسحرون عن الأكل .

ومع اتساع عمران المدن الإسلامية وتباعد أخطاطها وحاراتها عن المسجد الجامع فكر المسلمون فى التغلب على الصعوبات "الصوتية" بابتكار أسلوب جديد يعتمد على الضوء الذى يمكن أن يراه أهل أبعد الأحياء ليلاً فى يسر وسهولة . وبرزت فكرة فانوس السحور" الذى يعلق بأعالى المآذن وهو مضاء منذ دخول وقت صلاة المغرب ويظل على ذلك الحال إلى قبيل آذان الفجر فإذا ما أنزل الفانوس عرف الجميع أن الصوم قد بدأ .

ومن المرجح أن ابتكار فانوس السحور قد ظهر أولا فى مكة والمدينة المنورة ومنهما انتشر سريعاً إلى كل الأقطار الإسلامية ، وقد تحدث الرحالة المغربى ابن جبير بإسهاب عن هذا الفانوس وكيفية الصعود به إلى أعلى مآذن الحرم المكى خلال زيارته للأراضى المقدسة فى رمضان عام ٥٧٨ ه .

وقد حدث بمصر فى أوائل القرن السابع الهجرى (١٣م) أن جلس بعض الأدباء بصحن جامع عمرو بن العاص فى إحدى ليالى رمضان وقد أوقد فانوس السحور فاقترح بعضهم على الأديب أبى الحجاج يوسف بن على المعروف بالنعجة " أن يصنع فيه طلباً لتعجيزه فأنشد :

ونجم من الفانوس يشرق ضوؤه

ولكنه دون الكواكب لا يسرى

ولم أر نجماً قط قبل طلوعه

إذا غاب ينهى الصائمين عن الفطر

فعارضه على بن ظافر مؤكداً أن هذا تعجب لا يصح لأنه والحاضرين قد رأوا نجوماً لا تدخل تحت الحصر إذا غابت تنهى الصائمين عن الفطر وهى نجوم الصباح فأسرف القوم فى تقريعه حتى شحذ قداح فكره وأنشد :

هذا لواء سحور يستضاء به

وعسكر الشهب فى الظلماء جرار

والصائمون جميعاً يهتدون به

كأنه علم فى رأسه نار

وخارجاً عن التسحير من أعالى المآذن بالنداء الصوتى أو بأضواء فوانيس السحور كان البعض يمارس ذلك فى الطرقات على سبيل التطوع فى بداية الأمر . فيؤثر عن عنبسة بن إسحاق والى مصر فى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) أنه كان يذهب إلى جامع عمرو ماشياً من مدينة العسكر وكان ينادى فى طريقه بالسحور . وكان الأديب ابن نقطة المزكلش المتوفى سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) يسحر الناس مناديان «نياما .. قومًا قومًا للسحور» .

وكان أهل الاسكندرية تحت تأثير اتصالهم بالمغاربة وكذلك أهل اليمن يمارسون التسحير بدق الأبواب على أصحاب البيوت والمناداة عليهم «قوموا كلوا» . وكان الشوام يفعلون ذلك بدق الطار وضرب الشبابة والغناء والرقص واللهو واللعب .

ولا نعرف على وجه اليقين متى أصبح التسحير مهنة للبعض يقوم بها لقاءمقابل من أهل البر والإحسان ولكننا نجد «المسحر» أو المسحراتى فى العديد من الأقطار العربية والإسلامية .

ولعل أشهر "المسحرين" فى التاريخ ذلك الذى يدعى «أبا نقطة» والذى ارتبط اسمه بابتكار شعر شعبى يسمى القوما له وزنان مختلفان وكان يسحر به الخليفة العباسى الناصر لدين الله مقابل راتب سنوى .

وقد عرف هذا النوع من الشعر بالقوما من قول بعض المغنين «قوما لنسحر قوما» .

وعندما توفى أبو نقطة أعقب ولداً صغيراً حاذقاً بنظم "القوما" ، فأراد أن يعلم الخليفة بموت أبيه ليأخذ وظيفته فلم يتيسر له ذلك ، فانتظر حتى جاء رمضان ووقف فى أول ليلة منه مع أتباع والده قرب قصر الخليفة وغنى «القوما» بصوت رخيم رقيق ، فاهتز له الخليفة وطار طرباً ، وحين هم بالانصراف انطلق ابن أبى نقطة ينشد :

يا سيد السادات ∴ لك فى الكرم عادات

أنا ابن أبى نقطة ∴ تعيش أبى قد مات

فأعجب الخليفة بسلامة ذوقه ولطف إشارته وحسن بيانه مع إيجازه ، فأحضره وخلع عليه ورتب له ضعف ما كان لوالده .

ومن الطريف أن مهنة "المسحر" لم تكن قصراً على الرجال ، إذ عملت بها بعض النساء ، وقد أنشأ فى إحداهن الشيخ زين الدين بن الوردى قائلاً :

عجبت فى رمضان من مسحرة ∴ بديعة الحسن إلا أنها ابتدعت

قامت تسحرنا ليلاً فقلت لها ∴ كيف السحور وهذى الشمس قد طلعت

وتعد وظيفة "المسحراتى" فى مصر من أبرز ما لفت أنظار زوار القاهرة من المسلمين والأجانب على

حد سواء . ويستخدم المسحراتي في طوافه ليلاً بالأزقة والطرقات طبلا صغيراً يسمى "الباز" يضرب عليه بقطعة من الجلد ثلاث دقات متتالية فاصلاً بذلك بين ما يقوله من نداءات أو أشعار .

ويصحب المسحر في جولته التي تبدأ بعيد صلاة العشاء صبيٌ صغير يحمل قنديلين في إطار من الجريد . ويقفان أمام كل منزل يقطنه مسلم من المستورين القادرين على مكافأة المسحراتي . وبعد أن ينشد "عز من يقول لا إله إلا الله ومحمد الهادي رسول الله" فاصلا بينهما بثلاث دقات على "الباز" يواصل إنشاده بالنداء على صاحب البيت وإخوانه وأولاده الذكور .

ويتحاشى المسحراتي ذكر أسماء النساء إلا البنات الأبكار إذا ما وافق صاحب المنزل على ذلك ، وفي هذه الحالة الأخيرة ينشد قائلاً «أسعد الليالي إلى ست العرايس فلانه .. ويضرب طبله بعد كل تحية . وبعد أن يحيي الرجال يقول «ليقبل الله منه صلواته وصيامه وطيباته »ويختم بقوله «الله يحفظك يا كريم كل عام »

ولا يخفى على ذوي الفطنة أن السماح للمسحر بذكر أسماء البنات الأبكار إنما هو نوع من الإعلان ، المدفوع الأجر عن بنات في سن الزواج يقطن في البيت الذي يقف أمامه المسحراتي ، وفي هذه الحالة كان الرجل يؤدي جزءاً أساسياً من عمل «الخاطبة» ولو لبعض الوقت .

وتحظى البيوت الأكثر شهرة وغنى بالإضافة إلى ما سبق ببعض الأغاني الطويلة التي ينشدها المسحراتي في سجع غير موزون ويبدأها باستغفار الله والصلاة على رسوله الكريم ثم يأخذ في رواية قصة الإسراء والمعراج أو غيرها من القصص القرآنية أو حتى بعض الروايات الشعبية ذات الطابع الفكاهي ، ضارباً في كل الأحوال بطبله بعد كل قافية .

وفي إيجاز غير مخل كان المسحراتي يقوم بنفس الدور الذي يقوم به كل من الإذاعة والتلفزيون خلال شهر رمضان ببث المسلسلات الشيقة ولعله هو أصل ما يجري من اهتمام إعلامي حديثاً عند مقدم الشهر الكريم . ومهما يكن من أمر فإن المسحراتي الذي كان يخص بجهوده منازل بعينها في كل حي ، كان يحصل على أجره في عيد الفطر عند مروره بذات المنازل وذلك أما نقداً أو عيناً من كعك العيد .

ومن الأشعار التي كان المسحرون ينشدونها قولهم :

يا غفلان وحد ربك ∴ وبالتقى عمر قلبك
ما يوم تقلق على رزقك ∴ دا ربنا عالم بالحال
يارب قدرنا على الصوم ∴ وأحفظ إيماننا بين القوم
وارزقنا يا رب باللحم المفروم ∴ أحسن يا رب ماليش سنان

وقد أغرى الانتشار الواسع لما ينشده المسحرون بعض الشعراء والزجالين بالكتابة لأولئك

المسحرين، فقد كتب الشيخ محمد النجار شيخ الزجالين فى أواخر القرن الماضى عدة أدوار للمسحراتى منها قوله :

ثبت هلال رمضان وقالوا صيام
لرؤيته والشك زال باليقين
أحياكم المولى إلى كل عام
وكل عام وأنتم بخير طيبين

وله أيضاً مواويل سحر بها المسحراتية من بينها :

يا خاسر الدين يا فاطر نهار رمضان
ماهوش كدا المسلمين ما هوش كدا الإيمان
تدب بطنك وتحلف قال كمان إيمان
فاطر وكداب على الله فى نفس واحد
فى أمر تقدر عليه النسوان
قلل من الفول يا مخلول والطرشى
لحسن تغشلق وتبقى من العشا تحشى

وكان المسحراتى إذا ما قارب شهر رمضان على الانتهاء وحّش الشهر بقوله «لا أوحش الله منك يا شهر الصيام لا أوحش الله منك يا شهر القيام لا أوحش الله منك يا شهر الولائم . لا أوحش الله منك يا شهر العزائم . لا أوحش الله منك يا شهر الكرم والجود . »

ويعد شاعر العامية المصرى «فؤاد حداد» أشهر المعاصرين الذين كتبوا للمسحراتى وقد لاقت أشعاره مشهرة وأنتشار «واسعاً ولاسيما بعد أن قام بانشادها الفنان الكبير سيد مكاوى .

☾ ☾ ☾

الكنافة والقطائف

رغم أن رمضان هو شهر الصيام إلا أنه أحفل شهور السنة بالولائم والموائد التى تزخر بأنواع الطعام والحلوى .

ويسرف المسلمون فى هذا الخصوص ، وهو ما يتناقض مع مغزى صيام رمضان الذى أريد به أن يهذب النفوس ويسمو بالأرواح ويصفى النفوس من زخرف الدنيا وشهواتها . والعرب جميعاً يحبون الحلواء منذ القدم ، حتى أن معمر العرب «أبا عبيدة» كان يقول أن كل طعام لا حلواء فيه يعد ناقصاً عند العرب . والرسول صلى الله عليه وسلم كان يحب الحلواء والعسل وقد سأله ابن عباس : أى الشراب أفضل ؟ قال : الحلو البارد . أى العسل . وفضلاً عن ذلك فقد كان العرب يعتقدون أن تناول الصائم للحلواء يساعده على استرداد قوته وفى ذلك يقول "وهب بن منبه" إذا صام الرجل زاغ بصره فإذا أفطر على الحلوى رجع إليه بصره

ومع أن الحلاوات تؤكل فى كل زمان ومكان ، إلا أن الكنافة والقطايف أخص أنواعها بالشهر الكريم ولا يرد اسم رمضان أمام المصريين مثلاً إلا وتمثلت فى مخيلاتهم الكنافة والقطايف » .

وقد بلغ من شهرتهما أن جلال الدين السيوطى الفقيه والمؤرخ المصرى الذى عاش فى العصر المملوكى جمع ما قيل فيهما نثراً وشعراً فى كتاب لطيف أسماه «منهل اللطائف فى الكنافة والقطائف» .

أما عن أصل الكنافة ، فيذكر ابن فضل الله العمرى أن أول من اتخذ الكنافة من العرب هو معاوية بن أبى سفيان ، وكان يأكلها فى السحور ، وذلك أنه شكا إلى طبيبه الجوع فوصفها له ، وإن ذكر بعض المؤرخين أنها صنعت خصيصاً لسليمان بن عبد الملك .

ومهما يكن من أمر الروايات التاريخية فإن الكنافة قد لاقت رواجاً ملحوظاً فى كل من مصر والشام ثم فى بقية الأقطار العربية والإسلامية بدرجات متفاوتة ، وبلغ من اهتمام أهل مصر بها حدا أثار انتباه الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر فى القرنين ١٨ و١٩ فأسهبوا فى وصف طرق عملها وأطلقوا على الكنافة اسم «المكرونة المصرية» .

وحتى اليوم تنتشر صناعة الكنافة والقطائف فى أرجاء مصر ريفاً وحضراً وحتى فى المناطق شبه الصحراوية مثل البحر الأحمر ، ولعل ذلك الانتشار الواسع هو الذى حدا بأحد المحتسبين الأتراك فى

عصر محمد على أن يتخذ من الأنية النحاسية المستديرة التى تنضج الكنافة عليها ، أداة لتعذيب الكنفانية الذين يرفعون أسعارها بدلاً من الذهاب بهم إلى ساحة القاضى .

ويحوى الأدب العربى سجلاً حافلاً بالقصائد التى نظمها أصحابها فى الكنافة والقطائف ، وكلاهما يسوى من الدقيق المرق بالماء مع الاختلاف فى الشكل وطريقة الإعداد بعد ذلك ففى حين تكون الكنافة على شكل شعيرات طويلة تسقى "بالقطر" أى السكر المذاب بعد تمام نضجها ، نجد أن القطائف تكون على شكل الدائرة الصغيرة المخملية الملمس ولذا سماها العرب القطائف نسبة إلى قماش القطيفة ذات الخمل ، وهى تقلى بالزيت بعد حشوها وتسقى ، قديماً، بدهن الجوز وحالياً بالقطر أو السكر المذاب .

ويعد أبو الحسين الجزار المصرى الذى عاش فى عصر المماليك أكثر الشعراء وصفاً للكنافة والقطايف .

يقول الجزار الشاعر فى وصف الكنافة :

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر

وجاد عليها سكر دائم الدرّ

وتبا لأوقات المخلل إنها

تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

وله أيضاً :

تالله مالثم المراشف .·. كلا ولا ضم المعاطف

بألذ وقعاً فى حشا .·. ى من الكنافة والقطائف

وقال سعد الدين بن عربى :

وقطايف مقرونة بكنافة .·. من فوقهن السكر المذرور

هاتيك تطربنى بنظم فائق .·. ويروقنى من هذه المنثور

ويقول شهاب الدين الهائم فى الكنافة :

إليك اشتياقى يا كنافة زائد .·. ومالى عناء عنك ولا صبر

فلا زلت أكل كل يوم وليلة .·. ولا زال منهلاً بجرعاتك القطر

وقد أكثر الشعراء فى وصف القطائف التى يبدو أنها كانت مفضلة عن الكنافة ، ولما لا وهى التى كانت تشكل على سبيل المثال القاسم المشترك الأعظم فى الولائم التى كان الفاطميون فى مصر يولمونها فى الافطار والسحور إضافة إلى اهتمام الناس بحشوها بأنواع النقل وغمرها بعد القلى فى

دهن الجوز .

وفى تفضيل القطائف على الكنافة يقول سعد الدين بن عربى :

قال القطائف للكنافة ما .·. بالى أراك رقيقة الجسد
أنا بالقلوب حلاوتى حشيت .·. فتقطعى من كثرة الحسد

وتغزل أبو هلال العسكرى فيها فقال :

كثيفة الحشو ولكنها .·. رقيقة الجلد هوانيه
رشت بماء الورد أعطافهما .·. منشورة الطى ومطوية
كأنما من طيب أنفاسها .·. قد سرقت من نشر مارية
جاءت من السكر فضية .·. وهى من الأدهان تبرية

ويقول الشاعر المملوكى السراج الوراق فيها :

قطائفك التى رقت جسوماً .·. لماضغها كما كثفت قلوباً
كغيم رق لكن فيه قطر .·. غدا القفر الجديب به خصيبا

وقال سيف الدين بن قزل المنشد :

وقطايف مثل البدو .·. رأتت لنا من غير وعد
قد سقيت قطر النبا .·. ت وطيبت بالماء ورد
فحسبتها لما بدت .·. فى صحنها أقراص شهد

وفى القطائف أيضاً يقول ابن المعلم المرصص :

وحقك ما أوليتنى من قطائف .·. ألذ وأحلى من وصال القطائف
وقد ضمنت مثل العتاب حلاوة .·. ألم تراها ملفوفة كالصحائف

وهو يريد بالقطائف فى آخر البيت الأول «اللاتى يمشين هوناً»

ويقول شاعر آخر :

قطائف قد حشيت باللوز .·. والعسل "الماذى" والجوز
تسبح فى "آذى" دهن الجوز .·. سررت لما وقعت فى حوزى
سرور "عباس" بقرب "فوز"

والماذى هو العسل الأبيض والآذى : الموج أما الشطر الأخير فهو إشارة إلى عباس بن الأحنف

وفوز معشوقته .

وإلى جانب الكنافة والقطائف اشتهرت "الزلابية" كواحدة من حلواء رمضان التى يكثر عملها خلال هذا الشهر ، وإن كانت أقل حظاً من سابقتيها ، وفيها يقول ابن الرومى وهو يصفها ويصف قاليها :

ومستقر على كرسيه تعب ∴ روحى الفداء له من منصب تعب
رأيته سحراً يقلى زلابية ∴ فى رقة القشر والتجويف كالقصب
يلقى العجين لجينا من أنامله ∴ فيستحيل شبابيكا من الذهب

وكان ارتفاع أسعار هذه الأصناف السابقة يثير سخط الشعب وشكواه فى بلد مثل مصر . ففى سنة ٩١٧ هـ أرتفعت أسعار الكنافة والقطائف وغيرها من الحلواء التى تصنع فى رمضان ، فرفعت شكوى منظومة إلى المحتسب حوت أنواعاً مختلفة من الحلواء منها :

لقد جاء بالبركات فضل زماننا ∴ بأنواع حلوى نشرها يتضوع
حكتها شفاه الغانيات حلاوة ∴ ألم ترنى من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيها غير أن محبها ∴ يبدد فيها ما له ويضيع
فكم ست حسن من أصابع زينب ∴ بها كل ما تهوى النفوس مجمع
وكم "كعكة" تحكى أساور فضة ∴ وكم "عقدة" حلت بها البسط أجمع
وكم قد حلا فى مصر من "قاهرية" ∴ كذاك "المشبك" وصله ليس يقطع
وفى ثوبه المنقوش جاء برونق ∴ فيا حبذا أنوار حين تسطع
وقد صرت فى وصف القطايف هائماً ∴ ترانى لأبواب "الكنافة" أقرع
فيا قاضيا بالله محتسبا عسى ∴ ترخص لنا الحلوى نطيب ونرتع

ومن أصناف الحلوى التى كانت شهيرة ويألف العرب أكلها فى شهر رمضان "الفالوذج" وهى تعمل من الدقيق والماء والعسل . وحسبما جاء فى المعاجم اللغوية فهى لفظة معربة عن "بالوذة" (بالوظة) . وطبقاً لرواة الحديث فإن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأكل الدجاج والفالوذ »

وتشير أخبار العرب إلى أن أول من عمل الفالوذ فى بلاد العرب "عبد الله بن جدعان" ، وكان سيداً شريفاً من مطعمى قريش كهشام بن عبد مناف فقد وفد هذا القرشى على كسرى وأكل لديه الفالوذ ، فابتاع من عنده غلاماً يصنعه وقدم به مكة فضع الفالوذ ووضع موائده بالأبطح إلى باب الكعبة ثم نادى : من أراد أن يأكل الفالوذ فليحضر .

واتفق أن حضرهذه الواقعة التاريخية الشاعر المعروف أمية بن أبى الصلت فسجل بأبياته أول

وصف عربى للفالوذ أو الفالوذج وهو يمدح ابن جدعان فقال :

لكـل قبيـلة رأس وهـــاد .·. وأنت الرأس تقدم كل هادى

لـــه داع بمكـــة مشـمعل .·. وآخـر فـوق دارتـه ينـــادى

إلى ردح من الشيزى ملاء .·. لبــاب البــر يلبك بالشهـاد

وكان لابن جدعان جفان يأكل منها القائم والراكب ويروى أن صبياً وقع فى إحداها فغرق ، فضرب بها المثل فى العظم .

وسمع الحسن البصرى من يعيب الفالوذ فقال : لباب البر ، بلعاب النحل بخالص السمن . ما عاب هذا مسلم قط . ثم تلى قوله تعالى :-

«قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» .

وثمة طرائف تناقلتها المصادر العربية تدور جميعها حول الفالوذج . منهما أنه قيل لأبى الحارث جمين : ما تقول فى الفالوذج ؟ فقال : وددت أن الموت والفالوذج اعتلجا فى صدرى إلى يوم القيامة! والله لو أن موسى لقى فرعون بفالوذج لآمن ولكن لقيه بعصا !! .

وجلس أعرابى على مائدة سليمان بن عبد الملك الأموى فأتى بفالوذج فأخذ الأعرابى يأكل منه بشراهة . فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابى ؟ فقال بلى يا أمير المؤمنين ، إنى لأجد ريقاً هيناً ومزدرداً ليناً وأظنه الصراط المستقيم الذى ذكره الله فى كتابه .

فضحك سليمان وقال : أزيدك منه يا أعرابى ؟ فأنهم يذكرون أنه يزيد فى الدماغ .

فقال الأعرابى : لا تصدق يا أمير المؤمنين ، فلو كان الأمر كذلك لكان رأسك مثل رأس البغل .

وقيل لأعرابى على مائدة بعض الرؤساء : لم يشبع أحد من الفالوذج إلا مات . فأمسك الرجل قليلاً يفكر ويقدر ، ثم ضرب فيه بأصابعه وقال : أستوصوا بعيالى خيراً .

وجلس الغاضرى يأكل فالوذج على مائدة يزيد بن عبد الملك الأموى فجعل الغاضرى يأكل ويسرع، فقال يزيد : أرفق بنفسك فإن الإكثار منه يقتل . فقال الغاضرى : منزلى على طريق المقابر ، وما رأيت جنازة قط قيل إن صاحبها مات من أكل الفالوذج .

وجلس أبو هفان الشاعر وأبو العيناء على مائدة فيها فالوذج حار . فقال أبو هفان لأبى العيناء : هذا آخر مقامك من جهنم .

فقال أبو العيناء ، وكان حاضر الجواب : إن كان حاراً فبرده بشعرك .

وبعث رجل إلى مزبد المدنى بفالوذج قليل الحلاوة . فقال مزبد : ينبغى أن يكون هذا الفالوذج قد عمل قبل أن يوحى ربك إلى النحل .

وكان أحمد بن خالد وزير المأمون العباسى مضرب المثل فى الشراهة . وقد قيل أنه ولى رجلا كورة

جليلة (مدينة) لأنه أهدى إليه خوانا من الفالوذج .

أما الشعراء فلم يهملوا أمر الفالوذج ، وقد قال أحدهم :

ولا طفه بالشهد المخلق وجهه ∴ وإن كان بالألطاف غير خليق

كأن إصفرار اللوز فى جنباته ∴ كواكب تبر فى سماء عقيق

ويقول العسكرى فى وصف الفالوذج :

حمراء فى بيضاء فضية ∴ وظرف كافور وحشو الخلوق

يطوف الدهن بأرجائه ∴ إطافة الدمع بجفن المشوق

كأنما اللوز بحافاته ∴ أنصاف در ركبت فى عقيق

وكان ينافس الفالوذج نوع آخر من الحلوى هو "اللوزنيج" وهو شبه القطائف يؤوم بدهن اللوز وكان العرب يسمونه قاضى قضاة الحلاوات . وقد قال البعض أن التمر «يسبح» فى البطن فرد عليه آخر على هذا التقدير اللوزينج يصلى فيهاالتراويح .

ويبدو أن المنافسة كانت بين الفالوذج واللوزينج أو بالأحرى بين آكليهما حادة شديدة .

ومما يروى أن الرشيد وأم جعفر زبيدة اختلفا فيهما أيهما أطيب ؟ .

فاحتكما إلى القاضى أبى يوسف ، فقال يا أمير المؤمنين لا يحكم بين غائبين إذا حضرا الخصمان حكمت بينهما .

فجئ إليه بطبق من كل منهما ، فجعل يأكل من هذا لقمة ومن ذاك القمة حتى أتى عليهما . فقال له الرشيد أحكم بينهما . فقال : والله يا أمير المؤمنين كلما أردت أن أقضى لأحدهما جاء الآخر بحجته. فضحك الخليفة وأمر له بألف دينار ، وأمرت له زبيدة بألف دينار إلا واحداً تأدباً مع الخليفة.

ولم يغادر ابن الرومى اللوزينج دون أن يترك لنا أبياتاً فى وصفه من بينها :

لا يخطئنى منك لوزينج ∴ إذا بد أعجب أو أعجبا

لو شاء أن يذهب فى صحنه ∴ لسهل الطيب له مذهباً

يدور بالنفحة فى جامة ∴ دوراً ترى الدهن له لولبا

مستكشف الحشو ولكنه ∴ أرق جلداً من نسيم الصبا

من كل بيضاء يود الفتى ∴ أن يجعل الكف لها مركباً

لو أنه صور من خبزه ∴ ثغر لكان الواضح الأشنبا

وإذا كان اللوزينج ومنافسه الفالوذج قد أختفيا الآن من الموائد الرمضانية فإن الكنافة والقطايف قد نجحا فى مقاومة أصناف الحلوى المختلفة عبر الزمان وبقيا فارسا الحلبة فى رمضان دون منازع أو منافس .

هلال شوال والعيد
كعك العيد

ليس ثمة خلاف فى تراثنا العربى على الترحيب بهلال شوال الذى تحمل رؤيته بشرى الاحتفال بعيد الفطر ، وكان أحب الأهاليل إلى الناس كافة ، وإلى الشعراء بخاصة لأنه يرفع عنهم قيود الصيام .

ويضرب بهلال شوال المثل للشئ البهيج الذى يسر به الناس ويحتفلون بثبوت رؤيته والنظر إليه .

وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز فى وصف فتاة جميلة :

مر بنا والعيون ترمقه ∴ فى قد غصن وحسن تمثال
مخلته والعيون تنظره ∴ من كل فج هلال شوال

ويقول أبو محمد البطليوسى فى وصف فرس :

كأن هلال الفطر لاح بوجهه ∴ فأعيننا شوقاً إليه تميل

ومن الشعراء الذين أبدعوا فى وصف هلال شوال ابن المعتز ، وفيه يقول :

وهلال شوال يلوح ضياؤه ∴ وبنات نعش وقف بازائه
كبنانه من مخلص لما بدا ∴ وجه الوزير دعا بطول بقائه

ويقول فيه أيضاً السرى الرفاء :

قد جاء شهر السرور شوال ∴ وغال شهر الصيام مغتال
أما رأيت الهلال يرمقه ∴ قوم لهم - أن رأوه - اهلال
كأنه قيد فضة جرح ∴ فض عن الصائمين فاختالوا

ويقول أيضاً :

ولاح لنا الهلال كشطر طوق ∴ على لبات زرقاء اللباس

وله كذلك :

وكأن الهلال نون لجين ∴ غرقت فى صحيفة زرقاء

ويقول أيضاً :

ولاح هلال الفطر نضوا كأنه ∴ سنان لواه الطعن فى رأس عامل

ويقول أحد الشعراء فى هلال شوال :

أسقنى الكأس يا نديمى فقد عا ∴ د بعيد الصيام عهد الوصال

مـا رأينـا الهـلال حـتى رأينا ∴ كل شخص منا شبيـه الهلال

وقد اجتمع عدد من الشعراء بمصر فأنشدهم ابن النبية قول مؤيد الدين الطغرائى فى هلال الفطر :

قوموا إلى لذاتكم يا نيام ∴ وأترعوا الكأس بصفـو المدام

هذا هلال العيد قد جاءنا ∴ بمنجل يحصد شـهر الصـيـام

ثم تبارى ابن النبيه والشاعر الأندلسى "على بن ظافر" فى انشاء بيتين يقول الأول الشطرين الأول منهما على أن يكمل الأندلسى وهما :

أنـظـر إلـى هـلال بـدا ∴ يذهـب مـن أنـواره الحندسـا

كمنجل قد صيغ من فضة ∴ يحصد من زهر الدجى نرجسا

ثم أضاف على بن ظافر :

أما ترى الهلال يخفى أنجم الأفق ∴ بنـــور وجـهـــه الوسيـــم

كمنجـل مـن فضـة يحصـد مـن ∴ روض الظلام نرجس النجوم

ومن الطرائف التى تتصل برؤية هلال شوال أن الملك المعظم الشاعر الأديب عيسى الأيوبى كان قد صعد إلى مئذنة الجامع الأموى لاستطلاع هلال شوال ومعه القاضى والشهود ، فلم ير الهلال أحد منهم ولكن رأته جارية من محظياته فقال الملك المعظم لابن القصار الشاعر :

قل فى ذلك شيئاً فقال ابن القصار :

توارى هلال الأفق عن أعين الورى

وغطى بستر الغيم زهوا محياه

فلمـا أتـاه لاجتـلاء شـقيـقـه

تبـدى لـه دون الأنـام فحياه

وكثيراً ما ارتبط الترحيب بهلال شوال عند بعض الشعراء بالإشارة إلى قرب انتهاء رمضان كما نرى فى قول ابن المعتز :

قد قرب الله منه كل ماشسعا   .'.   كـأننى بهـلال الفطـر قـد لمعـا

فخذ لفطرك قبل العيد أهبته   .'.   فأن شهرك فى الواوات قد وقعا

وكان القدماء يطلقون على ما بعد العشرين من الشهر «الواوات» .

أما تهانى عيد الفطر فهى كثيرة فى الأدب العربى ، ومنها ما التزم بالتهنئة الخالصة كرائية البحترى التى يهنئ فيها المتوكل العباسى بصومه رمضان وبعيد الفطر ويصف فيها خروجه للصلاة ويشير إلى خطبته البليغة وفيها يقول :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم   .'.   وبسنة الله الرضية تفطر

فانعـم بعيـد الفطر عيداً إنه   .'.   يوم أغر من الزمان مشهر

ولم يعدم الأمر من جعل تهانيه مشوبة بالفتك والمجون مثلما حدث فى تهنئة الصابى لعضد الدولة البويهى ومنها :

أسـيدنا هنئـت نعمـاك بالفطـر   .'.   ووقيـت مـا تخشـاه مـن نوب الدهر

مضى الصوم قد وفيته حق نسكه   .'.   ووفـاك مكتـوب المثـوبة والأجر

وللـفـطـر رسـم للسـرور وسـنـة   .'.   ومـثلـك مـن أحيـا لنـا سنة الفطر

ولابـد فيـه مـن سمـاع وقـهـوة   .'.   تقضـى بهـا الأوطـار من لذة السكر

نـواصـل قـصـفـا بـين يـوم وليلة   .'.   دراكاً فنستوفى الذى فات فى الشهر

فمـر بالـذى نبغى وكن عند ظننا   .'.   فـلا زلـت فيـنـا نافـذ النهى والأمر

ولعل أبو نواس هو أكثر الشعراء تشفياً فى رمضان وترحيباً بشوال إذ يقول ، سامحه الله ، :

مـن شـوال علينـا   .'.   وحقـيـق بامـتنـان

جاءنا بالقصف والعز   .'.   ف وتغـريد القيـان

أحسـن الأشـهـر لى   .'.   أبعـدها من رمضان

ونسج آخر على منواله فقال :

أقول لصاحبي وقد بدا لى   .'.   هلال الفطر من خلل الغمام

سنسكر سكرة شنعاء جهراً   .'.   وننعر فى قفا شهر الصيام

أما الاحتفال بيوم الفطر فإن أبرز مظاهره على مر الزمان ذلك الاهتمام الكبير بأداء صلاة العيد التى يتقدمها دوماً الخلفاء والسلاطين وعمال النواحى وأرباب الوظائف كالقضاة والعلماء فى الدول المختلفة .

وتعد الدولة الفاطمية فى طليعة الدول الإسلامية التى أهتمت بالاحتفال بيوم الفطر ، وكانت لهم فيه طقوس خاصة نلمح أثرها إلى اليوم فى كل من مصر وبلاد الشام .

ففى يوم العيد يجلس الخليفة فى قاعة الذهب ليظهر الفطر ويجلس على يمينه الوزير ثم يجلس بعده الأمراء كل فى المكان المخصص له ويتبعهم الرسل الواصلون من جميع الولايات وهم وقوف فى آخر الإيوان .

وبعد أن يستعرض الخليفة الدواب بفرسانها ويتلى القرآن بمجلسه يحمل إليه فطوره الخاص المعطر بالمسك والعود والكافور والزعفران مع أنواع البلح الملونة التى يستخرج ما فيها وتحشى بالطيب وغيره ، فيأخذ ثمرة يفطر عليها ويناول مثلها للوزير فيظهر الفطر عليها ويفعل ذلك مع بقية المدعوين فيجعلون فى أكمامهم ما يناولهم إياه بعد تقبيله . ثم يأذن الوزير بناء على أمر الخليفة بافتتاح السماط والسماح للحاضرين بالأكل منه وأخذ ما يشتهون .

وبعد سماط الإفطار يخرج الخليفة مع حواشيه إلى مصلى العيد خارج باب النصر وهى مصلى كبيرة قائمة على ربوة وجميعها مبنى بالحجر ولها سور وفى صدرها قبة كبيرة بها محراب والمنبر إلى جانب القبة وسط المصلى مكشوفاً تحت السماء

ويكون خروج الخليفة من باب خاص بالقصر يعرف بباب العيد ويستعرض الجند فى طريقه إلى المصلى ويعود بعد الصلاة فيدخل من ذات الباب وفى القصر يمد سماط الكعك ليأكل الجميع منه حتى قرب الظهر

وكان موكب العيد فى العصر الفاطمى حافلا بأنواع من المرح ليشاهدها الخليفة عند ذهابه وإيابه من المصلى ، ويتولى القيام بها طائفة من أرباب الرواتب تعرف بالبرقية أو صبيان الخف . فيركب جماعة منهم على خيول فيركضون وهم يتقلبون عليها ويخرج الواحد منهم من تحت إبط الفرس وهو يركض ويعود ويركب من الجانب الآخر ويعود وهو على حاله لايتوقف ولا يسقط منه شئ إلى الأرض. ومنهم من يقف على ظهر الحصان فيركض به وهو واقف . وإذا عاد الخليفة من صلاة العيد ماراً بباب النصر وجد بعض هؤلاء البرقية قد مدوا حبلين مسطوحين من أعلى باب النصر إلى الأرض حبلا عن يمين الباب وحبلا عن شماله . وينزل على الحبلين طائفة من هؤلاء على أشكال خيل من خشب مدهون وفى أيديهم الرايات وخلف كل واحد منهم رديف وتحت رجليه آخر معلق بيديه ورجليه .

وإلى الفاطميين يرجع الحد الأوفى من اهتمام المصريين المحدثين بعمل كعك العيد ، ولانقول كل الفضل ، ذلك لأن الدولة الإخشيدية قد سبقت الدولة الفاطمية فى العناية بكعك العيد ، حتى أن أحد الوزراء الإخشيديين أمر بعمل كعك حشاه بالدنانير الذهبية ، وقد أطلق عليه آنذاك «أفطى له» أى للدينار الذهبى بداخله .

أما الفاطميون فقد توسعوا فى العناية بكعك العيد حتى أنهم جعلوا له إدارة حكومية خاصة

عرفت "بدار الفطرة" كانت تهتم بتجهيز الكميات اللازمة من كعك وحلوى وكعب الغزال لتوزيعها ولإعداد دسماط العيد الذى يحضره الخليفة . وكان العمل فى إعداد هذه الكميات الهائلة يبدأ من شهر رجب وحتى منتصف رمضان .

وكان يرصد لإعداد هذه الأصناف ميزانية ضخمة بلغت فى بعض السنوات ١٦ ألف دينار ذهبى (وزن الواحدة ٤,٢٥ جرام) وذلك لشراء الدقيق وقناطير السكر واللوز والجوز والفستق والسيرج والسمسم والعسل وماء الورد والمسك والكافور .

ويوضع إنتاج «دار الفطرة» فى سماط هائل ليبدو كجبل عظيم أمام شباك القصر الفاطمى حيث يجلس الخليفة بعد الصلاة ليرى بعينى رأسه الناس وهى تنهب الكعك لتأكله أو تهديه أو تبيعه فى الأسواق البعيدة عن القاهرة .

ورغم محاولات صلاح الدين الأيوبى للقضاء على كل ما يمت بصلة للخلافة الفاطمية الشيعية المذهب ونجاح جهوده فى القضاء على "التشيع" فى مصر ، إلا أن كعك العيد ظل ظاهرة تستعصى على كل مسعى لوقفها ، حتى أن بعض أمراء البيت الأيوبى أحتفظوا بالطباخات اللاتى عملن فى القصور الفاطمية لإنتاج الكعك ، ومن أشهرهن طباخة كانت تعمل كعكاً شهياً عرف باسمها «كعك حافظة»

وبلغ اهتمام المماليك بعكك العيد مبلغاً كبيراً حتى أنهم اعتبروه من أوجه البر والصدقات التى توزع على الفقراء حتى لا يحرموا منه فى عيد الفطر . ونجد فى "وقفيات" العصر المملوكى أكثر من إشارة لعمل الكعك وتوزيعه على موظفى الجوامع والمدارس وعلى المتصوفة بالخوانق ، وكذلك على تلاميذ المدارس وأطفال الكتاتيب .

ومن أشهر وثائق الوقف التى تحدثت عن كعك العيد ، تلك التى تخص مدرسة الأميرة "تترالحجازية" حيث نص فيها على توزيع الكعك «الناعم والخشن» على موظفى مدرستها المشيدة بحى الجمالية .

ولو التزمت وزارة الأوقاف المصرية «بالنصوص الحرفية» لوثائق الوقف المملوكية لتحول جزء معتبر من أنشطتها إلى انشاء مخابز لإنتاج كعك العيد .

وكان سكان مصر ، ولازلوا بالطبع ، يتهادون الكعك ويتنافسون بإجادته فيحدثنا محمد بن السعودى ، وكان يسكن درب الأتراك بجوار الجامع الأزهر أنه فى سنة بضع وستين وسبعمائة جاءه فى عيد الفطر من الجيران أصناف الكعك على عادة أهل مصر متى أمتلأ بها "زير" كبير ، لأن هذا الخط كان يسكن به الأكابر والأعيان .

ونظر لرواج الكعك فى عيد الفطر كان سوق الحلاويين بالقاهرة (داخل باب زويلة) يتيه فخراً خلال

العشر الأواخر من رمضان بما يعرض فى حوانيته من أصناف الكعك التى تخرج عن كل حصر .

وكان للفن أيضاً دوره فى صناعة الكعك ، فعملت له القوالب المنقوشة بشتى أنواع الزخارف الإسلامية ولا سيما الهندسية والنباتية منها وكانت بعض هذه القوالب على هيئة الحيوانات والطيور .

وضمن مقتنيات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة مجموعة من قوالب الكعك مكتوب على بعضها عبارات متنوعة منها «كل هنيا » و« كل واشكر » و« كل واشكر مولاك » و«بالشكر تدوم النعم» .

وإلى يومنا هذا يواظب المصريون على عاداتهم التقليدية فى عمل كعك العيد والتفاخر بما أنفقوا فى إعداد من أموال لشراء السمن والنقل . ولم تفلح عوادى الدهر ولا ضيق ذات اليد فى تقليص مساحة الاهتمام الشعبى بهذا الكعك .

ويبدو أنه قدر لكعك العيد أن يظل بحكم نوع خاص من «القصور الذاتى التاريخى» واحداً من أخص وأهم مظاهر الاحتفال بعيد الفطر فى مصر ،مهما تغيرت المذاهب والدول وارتفعت أو انحدرت مستويات الأجور والدخول تماماً كى أراد له الفاطميون ... ويا لها من إرادة .

☾ ☾ ☾

كسوة العيد

كسوة العيد هى اليوم بين أهم مظاهر الاحتفال بعيد الفطر المبارك وهى ليست وليدة هذا العصر وإنما تضرب بجذورها إلى حيث دولة الخلافة الإسلامية فى عصور بنى أمية والعباس والتى كانت رسومها تقضى بتفريق الخلع على أرباب الوظائف فى الدولة خلال شهر رمضان ليبدو موكب الخليفة وهو فى طريقه لأداء صلاة العيد قشيبا ومزادنا بألوان الملابس الرائقة والجديدة .

وكما هو شأنهم دائماً فقد وجه الفاطميون عناية خاصة لكسوات العيد بعدما أسسوا دولتهم الكبرى فى مصر والشام وشمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية وذلك فى إطار عنايتهم برسوم البلاط والدولة .

وقد احتلت «كسوة العيد» المكانة الأولى بين إجراءات احتفال الفاطميين بعيد الفطر حتى أن هذا العيد كان يعرف فى عصرهم بعيد الحلل ، لكثرة ما يوزع فيه من كسوات جديدة على الخاصة والعامة.

وكانت "دار الكسوة" هى الجهة المنوط بها توزيع كسوات العيد على أربابها بدءاً من الوزير ومروراً بالأمراء وكبار وصغار موظفى الدواوين وانتهاء بالفراشين والمستخدمين فى الدولة .

ويقوم صاحب ديوان الإنشاء بكتابة "رقاع" من الورق توضع فى كل كسوة خاصة بأحد وجوه الدولة . ومن هذه الرقاع واحدة كتبها "ابن الصيرفى" لتوضع فى كسوات عيد الفطر عام ٥٣٥ هـ وقد جاء بها «ولم يزل أمير المؤمنين منعماً بالرغائب موليا إحسانه كل حاضر وغائب مجزلا حظهم من منائحة ومواهبه .. وإنك أيها الأمير لأولاهم من ذلك بجسيمه وأحراهم باستنشاق نسيمه وأخلقهم بالجزء الأوفى منه عند نصبه و تقسيمة ولما أقبل هذا العيد السعيد والعادة فيه أن يحسن الناس هيأتهم ويأخذوا عند كل مسجد زينتهم ومن وظائف كرم أمير المؤمنين تشريف أوليائه وخدمة فيه بكسوات على حسب منازلهم تجمع بين الشرف والجمال ولا يبقى بعدها مطمع للآمال ...»

أما المسئول عن " دار الكسوة" فكان يعرف "بصاحب المقص" وهو مقدم الخياطين ، ولرجاله مكان يقومون فيه بالخياطة والتفصيل ، وهو يعمل وفق الأوامر الصادرة إليه من الخليفة وحسب ما تدعو إليه الحاجة . ويحمل الى دار الكسوة ما يعمل من نسيج وملابس من دور الطراز بمدن تنيس ودمياط والإسكندرية .

ودور الطراز هى مصانع النسيج الحكومية التى تشرف الدولة على منتجاتها وكلمة "طراز" معربة من الفعل «ترازيدن» ومعناها يوشى أو يطرز ، وإن استخدمت فى مصطلح العصور الوسطى لتدل

على العبارة الرسمية التى تتخذها الدولة شعاراً لها وتقوم بتسجيلها على النسيج والعملة أو غير ذلك من الأشياء ذات الطابع الرسمى .

فمصر مثلا كان طرازها الذى يوضع على ورق البردى يشير إلى عقيدة النصرانية فى الأب والابن والروح القدس ثم صار بدءاً من عهد عبد الملك بن مروان يحمل الإشارة إلى دين التوحيد «لا إله إلا الله وحده . محمد رسول الله» .

ودور الطراز على نوعين ، "دار طراز العامة" وهى تصنع منسوجات تباع فى الأسواق أو تهدى لموظفى الدولة فى المواسم والمناسبات ، ودار طراز الخاصة" وانتاجها موقوف على الخليفة وآل بيته فقط . وهذه الدور هى التى تسلم كسوات العيد إلى دار الكسوة .

وكان بدار الكسوة قسم خاص بملابس الخليفة تتولى الإشراف عليه إمرأة تنعت "بزين الخزان" وتحت إمرتها ثلاثين جارية «فلا يغير الخليفة أبداً ثيابه إلا عندها» .

ومهما يكن من أمر هذه الدار ومشرفيها ، فإن الدولة كانت تخصص ميزانية ضخمة للإنفاق على كسوة العيد . وقد بلغت النفقة عليها ، فى عام ٥١٥ هـ على سبيل المثال حوالى عشرين ألف دينار ذهبى ، صنعت بها ملابس من الحرير الموشى بالذهب والديباج الملون (القطيفة) والقطن والكتان المطرز وأقمشة أخرى لا نعرف الآن مدلولات أسمائها مثل «السقلاطون» و"البوقلمون" .

ولا شك فى أن الذين كانوا ينعمون بمثل هذه الكسوات الخليفية كانوا يتباهون بها على العامة ، لأن تلك الملابس التى تحمل فى طرازها اسم الخليفة وسنة الإهداء هى فى حقيقة الأمر بمثابة الأوسمة والنياشين والأنواط فى العصر الحديث .

وتقضى الأوامر التى كانت تصدر لدار الكسوة بضرورة توصيل الكسوات إلى أصحابها قبيل ليلة العيد ، حتى إذا ما خرج الخليفة لصلاة العيد خارج باب النصر مارا بباب فى قصره يعرف بباب العيد ، كانت القاهرة أشبه بكرنفال للملابس الجديدة الزاهية الألوان والتى يرتديها الأمراء وموظفو الدواوين والجنود وكافة أصحاب الرواتب فى الدولة .

وقد تقلصت عادة إهداء الدولة لكسوة العيد بعد سقوط الخلافة الفاطمية ورويداً رويداً اقتصرت ظاهرة إهداء "الخلع" على الأمراء وكبار الموظفين عند توليهم لمناصبهم فقط .

ولم يمنع ذلك أصحاب الخير من السير على سنة الفاطميين بإهداء كسوات فى عيد الفطر ، فقد حرص مؤسسو المدارس والمساجد والكتاتيب فى العصر المملوكى على النص فى وثائق أوقافهم المعينة للأنفاق على أنشطة هذه المنشآت ، على أن يقوم المشرف على الوقف «ناظر الوقف» بصرف كسوات للموظفين والتلاميذ الأيتام بمناسبة عيد الفطر ، أو صرف بدل نقدى بلغ فى وثيقة وقف السلطان قايتباى ألفى درهم .

وقد ذاعت شهرة دور الطراز المصرية بما أنتجته من المنسوجات الكتانية والحريرية والتى كانت تصدر فى العصور الوسطى إلى العديد من الدول الإسلامية بل والأوروبية . وكان الأسلوب الصناعى السائد هو اتخاذ لحمات الأقمشة من الحرير أو الصوف وسداتها من الكتان ، على أنه وجدت بعض الأقمشة المصنوعة كلها من الحرير «سدى ولحمة» وغالباً ما كانت توشى بخيوط من الذهب .

وقد تعددت طرق زخرفة المنسوجات التى كانت تصنع منها كسوات العيد ، فشملت الصباغة والتلوين والتذهيب والتطريز والطبع والتطبيق (البرودرية) والزخرفة المنسوجة .

أما الأزياء التى كان يرتديها المسلمون ، فقد تنوعت بحسب الشريحة الاجتماعية التى ينتمى إليها أصحابها ، أو الوظائف التى يعملون بها وإن اتفقت جميعها فى توخى الاتساع والاحتشام ، ولا فرق فى ذلك بين أزياء الرجال وأزياء النساء .

وحتى العصر العثمانى لم يتغير زى أرباب الوظائف الديوانية والقضاة وكذلك كبار التجار ، والذى كان قوامه "الطيلسان" والعمامية الكبيرة ، وكذلك الحال بالنسبة لملابس النساء ، وإن تبدلت ملابس العسكريين منذ بداية العصر المملوكى .

وما أن أهل العصر العثمانى فى مصر حتى كانت الأزياء قد تبدلت لتحاكى ما كان يلبسه أتراك القسطنطينية ، وصار زى كبار التجار والأثرياء فى المجتمع المصرى مكوناً من : "اللباس" وهو سروال الصيف (عادة من التيل) ويستبدل فى الشتاء "بالشرشير" وهو من الجوخ . وتميزت سراويل المماليك وقتها بلونها الأحمر وقماشها الحريرى المستورد من البندقية . وبعد ذلك نجد "القميص" وهو يتدلى حتى العقبيين ، ويلبس فوق السروال وأكمامه واسعة وبالغة الطول . واختص المماليك بارتداء «اليلك» وهو صديرى واسع وقصير ، وأكمامه طويلة جداً وبالغة الاتساع .

وفضلا عن ذلك فقد كان هناك ثلاثة أنواع من الأثواب المتسعة المفتوحة من الأمام وهى "القفطان" و"الجبة" وكانت تلبس فوق القفطان ثم "البنيش" .

وجرت العادة بأن يرتدى الموسرون أحزمة من الموسلين أو الصوف أو الحرير فوق القفطان ويعتمرون العمامة المكونة من الطربوش الأحمر والشال الذى يلف حوله .

ولم يكن لفقراء المدن والريف نصيب فى هذه النوعيات من الملابس إذ اقتصرت ملابسهم على قطعتين من الملابس الداخلية وقميص من التيل الأزرق له كمان طويلان وهو يعتبر الرداء الوحيد لهم فى فصل الصيف . ولا يستغنى الفقراء عن خدمات هذا القميص إلا بعد أن يكون العرق قد نال منه النصيب الأوفى ، لأن الصابون وقتها كان ترفاً لا يقدر عليه إلا الأثرياء .

أما ملابس النساء فى العصر العثمانى فقد اشتملت على : "اللباس" الذى كان يتخذ من الكتان أو القطن صيفاً ، ومن نسيج أكثر سمكاً فى الشتاء ويعرف عندئذ «بالشنتيان» ، ثم القميص واليلك الذى يختلف عن يلك الرجال فى ضيق أكمامه ، وقد يستبدل اليلك "بالفستان" المغلق من

الأمام .

وترتدى النساء "الجبة" فوق الفستان ، ويعقدن الأحزمة من الخلف بحيث تتدلى على هيئة المثلث . أما غطاء الرأس ويعرف باسم «الربطة» فكان مكوناً من الطاقية والطربوش من فوقها ثم «القمطة» التى تلف حول الطربوش وتزين باللالئ والأحجار الكريمة .

واعتادت النساء عند خروجهن للطريق العام ارتداء "التذييزة" وهى مكونة من ثلاث قطع :

١ - السبلة : وهو قميص واسع من التفتاز يغطى كل الملابس ويتدلى حتى يلامس الأرض .

٢ - البرقع : قناع الوجه ابتداء من أسفل الأنف ويتصل بالربطة من فوق الجبهة من الجانبين ويتدلى حتى الركبتين .

٣ - الحبرة : قطعة كبيرة من قماش التفتاز الأسود ، توضع فوق الرأس وتغطى به "الربطة" والملابس واليدين وتخلعه المرأة عند دخولها لأحد البيوت .

وقد أكتفت نساء الطبقات الشعبية بارتداء السروال ومن فوقه قميص أزرق اللون واسع جداً وأكمامه طويلة وواسعة تنزل حتى الردفين . ولم يعدم الأمر نساء فى الريف والمدن من كن يخرجن إلى العمل والأسواق وهن يرتدين "اليلك" بدون قميص وهو مايعنى عملياً الكشف عن جزء من صدورهن ، ونجد أمثلة كثيرة لهذه الحالات فى رسوم علماء الحملة الفرنسية والرحالة الأوربيين أيضاً .

ورغم تغير أنواع الأقمشة وتنوع الأزياء التقليدية والأوروبية التى نرتديها الآن فإن أبناء الطبقات المختلفة لا زالوا يبدون حرصاً شديداً على شراء "كسوة العيد" رغم مايسببه ذلك من عنت للعائلات التى تتمتع بوفرة فى عدد الأبناء ولكن الذى يهون من الأمر بعض الشئ أنها لا تشترى غالباً ثياباً جديدة فى عيد الأضحى الذى لا يبعد كثيراً عن عيد الفطر .

العيدية

"العيدية" لفظ اصطلاحى أطلقه الناس على ما كانت توزعه الدولة أو الأوقاف من نقود فى موسمى "عيد الفطر" وعيد الأضحى ، كتوسعة علي أرباب الوظائف .

وكانت هذه "العيدية" تعرف "بالرسوم" فى أضابير الدواوين ، ويطلق عليها التوسعة فى وثائق الوقف .

و"العيدية" مدينة بظهورها كحق مكتسب لموظفى الدولة لسياسة "ذهب المعز وسيفه» الشهيرة ، إذ يؤثر عن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، أنه عند دخوله مصر بعد فتحها على يد جوهر الصقلى، وجد الناس فى جدل ونقاش بين مؤيد ومشكك فى صحة نسبه إلى البيت النبوى . فوقف وسط الناس وقد لوح بسيفه قائلاً «هذا نسبى» ثم أعقب ذلك بإخراج بعض الذهب وهو يصيح «وهذا حسبى» .

وقد أثبتت الأحداث أن المعز لدين الله أحسن لحد كبير استخدام "حسبه ونسبه" فى توطيد دعائم خلافته الشيعية المذهب ، فجرد الجيوش لتهاجم مناهضيه من غير هوادة ، وغمر رعاياه فى كل مناسبة بالأعطيات ومظاهر الترف والبهجة .

وساعد المعز علي تنفيذ سياسته الذهبية ، سيطرة الخلافة الفاطمية على طرق تجارة الذهب مع غربى أفريقيا ، تلك التجارة التى تعرف "تاريخياً" بالتجارة الصامتة ، ذلك أن التجار المسلمين كانوا يذهبون إلى حافة الصحراء عند غانا القديمة ويضعون فى مكان معلوم بضائعهم من أقمشة وخرز وزجاج ملون وملح ، على أن يعودوا إلى ذات المكان فى اليوم التالى حيث يجدون كومة من التبر قام السكان المحليون بوضعها أمام كل صنف من السلع التى يرغبون فى شراءها ، فإن أعجبهم السعر أخذوا الذهب ورحلوا أو عادوا أدراجهم دون أن يحركوا شيئاً من سلع المبادلة فيفهم السكان أن التجار يرغبون فى زيادة الثمن حتى تنتهى عملية التفاوض ، وتتم تلك التجارة الفريدة دون أن يتبادل أطرافها أى حديث وربما دون أن يرى بعضهم البعض . وتذكر المصادر التاريخية أن المعز لدين الله حمل فى رحلته من المهدية بتونس إلى القاهرة ثروة ذهبية هائلة سبكها على هيئة أحجار الطواحين الضخمة ووضعها على رواحل الجمال .

وإلى جانب الذهب الإفريقى كانت المناجم المصرية فى وادى العلاقى ووادى الطميلات تزود الفاطميين بمعدن الذهب ، وذلك فضلاً عن حلى الذهب التى كان يستولى عليها من مقابر الفراعنة بواسطة حفنة من المغامرين تشرف الدولة على أعمالهم وهم يعرفون "بالمطالبين" .

وقد حرص الفاطميون على توزيع "العيدية" مع كسوة العيد ، خارجاً عما كان يوزع على الفقهاء

والمقرئين بمناسبة ختم القرآن ليلة عيد الفطر من الدراهم الفضية .

وعندما كان الرعية يذهبون إلى قصر الخليفة صباح يوم العيد للتهنئة ، كان الخليفة ينثر عليهم الدراهم والدنانير الذهبية من منظرته بأعلى أحد أبواب قصر الخلافة

والحقيقة إن الاهتمام الأكبر "بالعيدية" والمعروفة باسم الرسوم كان يقع فى عيد الأضحى لأن عيد الفطر كان يعرف لديهم بعيد الحلل والكسوات ، وقد رصدت لتلك الرسوم فى عام ٥١٥ هـ ، ثلاثة آلاف وثلثمائة وسبعة دنانير ذهبية

وفضلاً عن ذلك فقد كان الفاطميون يضربون دنانيراً خاصة بغرة العام الهجرى تعرف بدنانير "الغرة" ، ويضربون أيضاً قطعاً ذهبية صغيرة تعرف بالخراريب (الخروبة = ١٩٢جرام) فى "خميس العهد" وهو من أعياد الأقباط فى مصر التى كان يحتفل بها المصريون جميعاً ، ويسمونه "خميس العدس" .

وتوزع الخراريب على موظفى الدولة والأمراء ، أى أن "العيدية" كانت لأعياد المسلمين والنصارى على حد سواء .

وبزوال دولة الفاطميين ، توقفت الدول المتعاقبة عن صرف العيدية أو الرسوم لأرباب الوظائف المدنية ، وأكتفت بصرفها للجنود من المماليك وبصفة خاصة فى عيد الأضحى كما كان الحال زمن الفواطم . وكثيراً ما تعرض بعض السلاطين لاعتداءات المماليك بسبب قلة أو تأخر نفقة العيد ، وربما أدى تذمر المماليك إلى عزل السلطان عند عجزه عن إرضاء رغبات مماليكه .

أما النقود التى كانت تصرف بها "العيدية" ، فهى محصورة فى ثلاثة أنواع هى : الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية وأجزاءها من الأنصاف والأرباع .

وقد اعتبرالمسلمون الدنانير والدراهم نقوداً شرعية بينما كانوا ينظرون إلى "الفلوس النحاسية" باعتبارها "عملات مساعدة" تستخدم لشراء محقرات الأشياء ولا يصح التعويل عليها كنقد شرعى للفارق الكبير بين قيمتها الإسمية كنقد وقيمتها الجوهرية كنحاس محتقر .

إلا أن مجموعة من الكوارث والمحن ألمت بمصر فى عهد الفاطميين أدت إلى ارتفاع الأسعار وإنهيار قيمة العملة أكثر من مرة ، مما دفع بالقادرين إلى إكتناز الذهب الذى كانت لدنانيره قوة إبراء غير محدودة ، وصحت بالتالى قاعدة جريشام التى تقول بأن «العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من التداول" إذ طردت الدراهم الفضية الدنانير الذهبية من التعامل اليومى إلى ظلال الاكتناز فى قصور الأثرياء .

وقبل أن ينتصف عمر دولة المماليك فعل الفلس النحاسى بالدرهم نفس الفعلة وكان الجزاء من جنس العمل ، فاختفت الدراهم وصارت الفلوس النحاسية هى السائدة فى التعامل ، حتى أن

الشخص الذى كان يقع فى يده دينار ذهبى فى ذلك العهد كان «كمن جاءته البشارة بالجنة» .

ونظراً لما كانت تتمتع به الدنانير والدراهم الإسلامية من قوة العيار (النقاء) ووفاء الوزن ، فقد حاول كثيرون تزييف هذه النقود ، سواء أكانوا من "الزغليين" (مزيفو النقود) أو من الأمراء الصليبيين بالشام ، إذ وضعوا الكتابات العربية على عملاتهم الرديئة لإعطائها قوة الإبراء لتى كانت لتلك العملات الأصلية .

ومارس اليهود التزييف والتدليس على الجمهور بطريقتهم الخاصة ، فكان الصيارفة اليهود يقومون بوضع الدنانير فى أكياس يقومون بهزها فى غدواتهم وروحاتهم ، وينتج عن احتكاك القطع المعدنية ببعضها البعض «برادة» ذهبية يستفيد بها الصيارفة . ومن الطريف أن اليهود استخدموا ذات الأسلوب لإنقاص وزن ريالات «مارى تريزا» فى أوروبا خلال القرن الثامن عشر الميلادى .

وتزييف النقود الإسلامية فى واقع الأمر ، حلقة من حلقات متداخلة من محاولات البعض لتزييف النقود منذ ابتكارها .،ويحتفظ المتحف المصرى بالقاهرة بأول نقد معدنى مزيف ظهر إلى الآن ويرجع تاريخه إلى عام ٤٠٠ ق . م وهو عبارة عن سبيكة معدنية مغطاة بقشرة فضية .

ومن المفيد أن نذكر هنا أن المسلمين تعاملوا بالنقد المعدنى فى غالب الأحوال ومعظم الأقطار ، باستثناء فترة قصيرة فى خلافة عمر بن الخطاب اتخذت خلالها "العملة الجلدية" بديلاً عن المعدنية لضرورة اقتضها الحروب ، وأيضاً فى الولايات الفارسيه التى كانت خاضعة لحكم الإيلخان المغولى «كيخاتو خان» الذى وافق عام ٦٣٩ هـ على إصدار عملة ورقية عرفت "بالجاو" بناء على مشورة بعض الوزراء لتلافى عجز خزانة الدولة عن سداد المصروفات الضرورية ، إلا أن العمل بهذا "الجاو" المختوم بتمغة الخان المغولى ، لم يستمر طويلا واضطر "كيخاتو" إلى وقف العمل به نتيجة لضغوط الفقهاء والعامة وانتهى الأمر بقتله بعد أشهر قليلة وتوليه «بادوخان» مكانه .

ومن نافلة القول أن نذكر بأن الصينين هم أول من عرفوا النقود الورقية وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تقريباً أى بعد مرور خمسة عشر أو ستة عشر قرناً على سك أول نقد معدنى فى عهد كرويسوس أو قارون الليدى (٥٦١ - ٥٤٦ ق . م) بآسيا الصغرى .

ومهما يكن من أمر المادة التى سكت منها نقود "العيدية" فإن النقود الإسلامية قد أصابها ما أصاب الكيان الإسلامى ذاته من ضعف ووهن منذ القرن التاسع الهجرى (١٥م) ، فاختفت الدنانير والدراهم لتحل مكانها "الدوكات" من ضرب البندقية و"الإفلورى" من ضرب فلورنسا بإيطاليا ثم ريالات مارياتريزا النمساوية وما إلى ذلك من عملات أوربا .

وإذا كانت متاحف العالم تتيه الآن بمقتنياتها من العملات الإسلامية القديمة ، فإنها فى الواقع مدينة بتلك "الثروات التاريخية" للاكتناز الذى صاحب انهيار القوة الشرائية لهذه العملات أولاً ، ومدينة ثانياً لعادة بعض المسلمين فى إحاطة رؤوس أطفالهم بنقود ذهبية كتعويذة نظراً لنقشها بآيات

قرآنيـة . وقـد وجـد الأوروبيون بغـيـتـهم من الدنانيـر الأثرية فى حليـات الفتيـات المسلمـات ، ولذلك فليس من المستغرب أن معظم الدنانير القديمة المحفوظة بالمتاحف وجدت مثقوبة لأنها استخدمت كجزء من الحلى الإسلامى .

ومن الملفت للنظر أن تغير الدول فى مصر ، وتنوع أسمـاء العمـلات على مدار العصور حتى ليكاد يصعب حصرها خـاصة فى أيام العثمـانين ، ذلك كله لم ينس الناس "عـيدية" الفـاطميين وإن تبدلت المواقف ، فالدولة خرجت من عـمليـة إهداء "العيـدية" ودخل الأباء والأعمـام والأخوال ليتـحملوا عبء تمويل "العيدية" لصالح «الأطفال» الذين أخذوا موقع الموظفين والأمراء .

وبعـد ذلك فليس هناك ثمـة شك فـى أن الأبا ء يصبـون الآن اللعنـات على المعـز "وذهبـه" الذى جر عليهم تبعات تلك العيدية .

(((

المحتسب فى رمضان

قبل أن يتم إلغاء وظيفة «الحسبة» فى البلاد الإسلامية فى القرن الماضى ، كان «المحتسب» من أبرز شخصيات الحياة العامة التى يعمل لهما الناس كافة ألف حساب ، وخاصة خلال شهر رمضان الكريم .

وقد اختلف الكتاب فى معنى كلمة "المحتسب" ، فمن قائل بأنها مشتقة من قولهم «حسبك» بمعنى اكتف لأن المحتسب يمنع الناس من الغش وارتكاب المحظورات ، إلى صاحب القاموس المحيط الذى يقول «احتسب عليه ، أنكر ومنه المحتسب» . وأيضاً يقال فعلت هذا الأمر حسبة لله وأحتسبته عند الله أى جعلت حسابى عليه وأجرى منه .

أما الفقهاء فكانوا أقل اختلافاً فيما بينهم عن علماء اللغة ، فالحسبة عندهم هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والذى يرى "ابن خلدون" أنه فرض على القائم بأمور المسلمين .

وقد أجمل الفقيه "ابن تيمية" مهام المحتسب فى أنه «يأمر بالجمعة والجماعات وبصدق الحديث وأداء الأمانات ، وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة وما يدخل فى ذلك من تطفيف المكيال والميزان والغش فى الصناعات والبياعات والديانات ونحو ذلك ، والغش يدخل فى البيوع بكتمان العيوب وتدليس السلع كما يدخل فى الصناعات» .

وتضاربت أقوال المؤرخين فى منشأ الحسبة فبعضهم يقول أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان أول محتسب ، إذ نهى عن الغش حين قال :- "من غشنا فليس منا" وذلك عندما مر بالسوق وأنكر ما قام به أحد الباعة بوضع طعام أصابه المطر بأسفل صحيح الطعام حتى لا يراه المشترون . ويقول آخر أن عمر بن الخطاب هو أول من وضع نظام الحسبة وكان يطوف الشوارع والأسواق ودرته معه (وهى جلد البقر أو الجمل ومحشوة بنوى التمر) فمتى رأى غشاشاً ضربه بها مهما كان شأنه وربما أتلف بضاعته .

وإذا كان الخلفاء أنفسهم هم الذين قاموا بوظيفة المحتسب فى صدر الإسلام ، فإن تعقيدات الحياة فرضت على من أتى بعدهم أن يولوا موظفاً بعينه لممارسة ذلك العمل وهو "المحتسب" الذى كان له «أعوان» يساعدونه فى اكتشاف طرق غش الباعة والصناع وفى إنزال العقوبات بهم أيضاً .

يمكن القول بأن المحتسب كان يؤدى وظائف مجموعة من الدوائر الحكومية التى نعرفها اليوم فى النظم الإدارية الحديثة ، مثل رئاسة البلدية ووزارة التموين وشرطة الآداب والشئون الاجتماعية وغير

ذلك من الوظائف التى تتعلق بسير الحياة اليومية .

كان المحتسب على سبيل المثال لا الحصر يراقب كل صاحب مهنة يكتسب منها ، صغر شأنها أو كبر ، حتى أنه كان يراقب الفرانين والخبازين ويمنعهم من عجن الدقيق بأرجلهم أو غش الخبز بإنقاص وزنه أو إضافة مواد غريبة إليه . كما كان معنياً بتوفير شروط النظافة والصحة العامة داخل المخابز .

ولم يفلت الأطباء من مراقبته ، فكان يأخذ عليهم عهد "أبقراط" ويجبر الطبيب . على دفع دية المريض إذا مات بسبب سوء تصرفه .

ويمتد نفوذ المحتسب إلى الأسواق فيمنع الغش والاحتكار ورفع الأسعار ويراجع الموازين والمكاييل ليتأكد من سلامتها . كما يمنع شرب الخمور علنا ويطارد السحرة والكهنة والرجال الذين يتعرضون للنساء . وعليه أيضاً منع الناس من طرح الكناسة على جوانب الطريق وإلزامهم بإزالة ماء المطر من الطرقات لأن ذلك ينجس الثياب ، والمحافظة على نظافة المساجد وأداء المسلمين للصلوات الجامعة بها .

ويأمر المحتسب أيضاً بهدم الأبنية البارزة ويمنع فتح النوافذ فى الأبنية التى تشرف على غيرها ويدعو أصحاب الدور المتداعية إلى هدمها ورفع أنقاضها من الطريق .

ومن حقوق المحتسب أن يجبر السادة على معاملة عبيدهم وإمائهم معاملة حسنة ، وأخذ أرباب البهائم بعلوفتها وأن لا يستعملوها فى ما لا تطيق عمله .

وله أيضاً السهر على الأطفال اللقطاء والتكفل بهم ، وجمع وحفظ الأشياء الضائعة وإعادتها إلى أصحابها ، ومنع معلمى المكاتب من ضرب الصبيان ضرباً مبرحاً ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار فى الحمل .

ولم يخرج الحكام عن دائرة اختصاص المحتسب ، إذ يروى أن أتابك دمشق طلب محتسبا ، فذكر له رجل من أهل العلم ، فأمر بإحضاره فلما نظره قال : إنى وليتك أمر الحسبة على الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فرد عليه قائلاً : إن كان الأمر كما تقول فقم عن هذه الطراحة وارفع المسند فهما حرير واخلع الخاتم فإنه ذهب ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم هذان حرام على ذكور أمتى حل لإناثها فنهض السلطان عن الطراحة وخلع الخاتم وأضاف إلى المحتسب وظيفة الشرطة .

وظلت الحسبة لا يولاها إلا وجوه المسلمين وأعيان المعدلين لأنها خدمة دينية حتى القرن التاسع الهجرى ، عندما بدأ المماليك فى مصر والشام فى توليتها بالبذل والبرطلة (بالرشوة) ويذكر التاريخ أن الأمير "تنم من رصاص" هو أول من ولى الحسبة بالبذل ، ومن يومها اتضعت هذه الوظيفة وذهبت هيبتها حتى ألغيت .

وقد كان للمحتسب إضافة إلى وظائفه السابقة مهام خاصة يقوم بها فى شهر رمضان .

فهو الذى يحاسب المفطر بعد أن يسأله عن سبب إفطاره لاحتمال أن يكون مريضاً أو مسافراً ، فإذا أثبت شيئاً مما يبيح له الإفطار عذره للجهر بالإفطار ، وإن كان مضطراً لغير سبب أدبه وشهر به. والتشهير هو الذى يعرفه عامة الشعب باسم «التجريس» أو الجرسة ، فيركب المفطر بدون عذر على جمل أو حمار بوضع عكسى ويطاف به فى الأسواق ويجلل بلباس خاص يحوى الكثير مما يلفت النظر إليهما لأجراس وأذناب الثعالب وتتبع أفواج الصبيان ينعتونه بأعنف الأوصاف وينالون من شرفه وكرامته بشكل لا يقوم له بعد ذلك كيان .

ولا زالت الذاكرة التاريخية تنقل إلى الأطفال تلك العبارة الأشهر من بين ما كان يقال فى موكب الجرسة "للمفطر" يا فاطر رمضان .. يا خاسر دينك» ونجد ذلك المقطع من الموروث الشعبى يتكرر فى زجل للشيخ محمد النجار فى أوائل هذا القرن ، فيقول :

يا خاسر الدين يا فاطر نهار رمضان

طاوع إلهك وخالف النفس والشيطان

ولا مراء فى أن مهمة المحتسب فى مراقبة المفطرين فى العصور الأولى كانت أكثر يسراً عنها فيما تلا ذلك من عهود ، إذ أن أبناء الأديان الأخرى كانوا يراعون شعور المسلمين فلا يطعمون ولا يشربون أمامهم نهاراً ، ويروى بعض المؤرخين أن أحد المجوس رأى ابنه يأكل فى رمضان فضربه وقال له : هلا حفظت حرمة المسلمين فى رمضان ؟ بل إن بعض هؤلاء كان يصوم رمضان بالفعل كالأديب أبى إسحق الصابى .

ولم يتطرق الانحلال إلى هذه العادة النبيلة إلا بعد أن رأى غير المسلمين أن المسلمين أنفسهم لا يرعون حرمة الصيام فباتوا لا يرجون لهم وقارا وصدق من قال :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها

هواناً بها كانت على الناس أهونا

ولم يستطع المحتسبون شيئاً مع بعض من جاهروا بإفطار رمضان من الشعراء ولعلهم عدوا ذلك من قبيل حقوق إبداء الرأى أو حرية التعبير لتلك الصفوة من الناس فلم يعذر مثلاً الشاعر العباسى "ديلك الجن الحمص" عندما قال :

وحياة ظبى لم أصم عن ذكره ∴ إلا عضضت تندماً إبهامى

لأشافهن من الذنوب عظامها ∴ ينقد عنها جلد كل صيام

ولعل فى أشعار الأخطل ما يدل على التسامح الذى تمتع به الشعراء ومنهم هذا الشاعر المسيحى ولم يوبخه مسئول الحسبة الأول عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى عندما قال :

ولست بصائم رمضان عمرى ∴ ولست بآكل لحم الأضاحى

ويذكر المؤرخون أنه كان يدخل على عبد الملك بن مروان والخمر تفوح من فيه وتتحادر من لحيته

بيد أن تلك الحوادث الفردية لم تفت فى عضد المحتسب وأعوانه فكانوا يقومون بعملهم فى مراقبة المفطرين وتعذيرهم أو تأديبهم على الجهر بالإفطار ، ثم فترت همة المحتسب وأعوانه عندما دخلت الرشوة فنخرت عظام الحسبة بأسرها وجاءت موجة الاستعمار الأوروبى الحديث فصار الناس يتباهون بالإفطار مقلدين الأجانب حتى أن بعض المسحرين كان يقول :

واعرف يقينك وشمر ساعدك والذيل

لحفظ دينك واصح تكون الأفرنكة

وتقول على الصوم يهد العافية والحيل

فذهب ما كان قد تبقى للحسبة والمحتسب من هيبة فى رمضان ، وجاء إلغاء الحسبة ليكون بمثابة كتابة شهادة وفاة لعزيز ووري الثرى ، فلله درها من وظيفة نفتقدها فى كل رمضان يمر بنا الآن .

أسواق القاهرة فى رمضان

لو قيض القدر "للقاهرة" أن تحتفظ بأسواقها القديمة ، لعرفها العالم بوصفها «مدينة الأسواق» ، لا مدينة الألف مئذنة" .

فمساحة القاهرة القديمة ، التى لم تكن كبيرة بحال من الأحوال ، كان بها ٥٠ سوقاً مفتوحاً ، و٣٣ مبنى مخصص لأغراض التجارة تتنوع بين قيسارية أو خان أو فندق أو وكالة ، وذلك كله خارجاً عما كان فى الفسطاط وساحل بولاق وظواهر القاهرة .

وكان أهل كل حرفة أو تجارة يتجمعون فى سوق خاص بهم يعرف باسمهم ، وذلك تسهيلا لشيخ كل طائفة فى مراقبته لأبناء "صنعته" .

ومن أشهر أسواق القاهرة التى ذكرها المقريزى ، المؤرخ المشهور، سوق "القصبة" أى سوق الشارع الرئيسى للقاهرة وهو حالياً شارع المعز لدين الله أو «بين القصرين» وكان به ألف حانوت غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة التى تبهج رؤيتها وقد تفرعت من هذه السوق أسواق صغيرة أخرى أهمها سوق بين القصرين واعتبرت من أعظم أسواق الدنيا ثم سوق السلاح وسوق اللحميين (الجزارين) وسوق الجوخيين (لتجارة أقمشة الجوخ) وسوق الحلاويين وسويقة أمير الجيوش وسوق الصنادقيين والحريريين والعنبريين والخراطين والقرابيين (لبيع قرب الماء) وغير ذلك كثير .

ولم يتبق من المنشآت التجارية ، التى تعددت مسمياتها فمنها ما يعرف بالوكالة أو القيسارية أو الخان وأيضاً منها الفنادق سوى عدد ضئيل نسبياً ، أهمها ، وكالة قايتباى قرب باب النصر ووكالة الغورى بجوار الأزهر وخان الخليلى بحى الجمالية وتعد وكالة الغورى أحسن هذه المنشآت اكتمالاً وحفاظاً وهى تتكون من فناء واسع مكشوف تحيط به أربعة أضلاع من البناء ، كل منها مكون من خمسة طوابق وكانت الأدوار السفلية مخصصة لعرض البضائع وتخزينها أما الأدوار العلوية فكانت معدة لسكن التجار الذين كانوا يجيئون من شتى أقطار الأرض .

وقد كانت القاهرة منذ نشأتها مركزاً للتجارة العالمية ، وانعكس ذلك على حركة البيع والشراء بها ، فأصبحت أسواقها أكثر بقاعها إزدحاماً وضجيجاً وخلال شهر رمضان كان الإزدحام والتكالب على الحوانيت أكثر المظاهر إثارة وتشويقاً فى أسواق القاهرة ، خاصة وأن أهلها حسبما لاحظ الرحالة كانوا يشترون طعامهم مطهياً من الأسواق ، واستمر هذا الوضع حتى مقدم الحملة الفرنسية فى نهاية القرن ١٨ م ، ويعزى ذلك إلى قلة "الوقود" اللازم لعمليات الطهى بالمنازل وارتفاع أسعاره .

ولا شك أن الفترة المحددة للإفطار ، وهى لحظة الغروب ، كان يسبقها تكالب وصخب يمتد إلى وقت السحور .

وقد أمدنا الرحالة المغربى «العبدرى» بصورة حية لما كان عليه حال سوق بين القصرين فى أواخر شهر رمضان من عام ٦٨٨ هـ ، إذ صادفه سوء الحظ فنزل بالمدرسة الكاملية المطلة على السوق ، فقال رحمه الله «كنت قلما أرقد إلا منغصاً لصياح الباعة وهم يبيعون طوال الليل وقلما يكون طعام الشريف منهم والوضيع إلا من السوق والطرق غاصة بالخلق حتى ترى الماشى فيها لا هم له سوى التحفظ من دوس الدواب إياه ولا يمكنه تأمل شئ فى السوق لأن الخلق مندفعون فيها مثل اندفاع السيل . وقد ضاعت لى بها دابة بسبب الزحام كان عليها . شخصاً راكباً فتكاثر عليه الزحام حتى أسقط عنها ، واندفعت فى غمار الخلق ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها » .

بيد أن هذا الصخب والضجيج كان يتوقف فى لحظة واحدة إذا ما شعر التجار وعامة الناس بنزول المماليك إلى الشوارع للاقتتال ، وكثيراً ما كان يحدث ذلك فيسرع أصحاب المتاجر إلى إغلاق أبواب حوانيتهم والهرب بحياتهم خلف أبوابها الضخمة ، وتتحول الطرقات والدروب إلى مقبرة للصمت المخيف .

ومن غرائب ما كان يباع فى الأسواق من طعام فى شهر رمضان ، الدجاج المطبوخ بالسكر ، وقد يضاف إليه الفستق فيعرف بالفستقية أو الجوز فيقال له الجوزية ولربما أضيف إليه الخشخاش وهو "زهر الحشيش" ورغم وجود هذا المخدر فى الدجاج فإن أحدا ويا للعجب لم يستنكر أكل هذه "الخشخاشية" فى رمضان !!

ولعلنا لا نعجب من ذلك ، إذا ما عرفنا أن تجار المخدرات (التحفجية) كانوا يروجون لبضاعتهم داخل جامع الحسين حيث كان بعض المصلين يضجعون حتى يحين موعد الإفطار .

وإذا ما تجاوزنا أسواق الطعام كالشوايين واللحميين ، فإننا سنجد أن سوق الشماعين فى القرنين ٨ ، ٩ هـ كان يحتفل بمقدم شهر رمضان بطريقته الخاصة ، فتعلق على واجهات الحوانيت وعلى جوانبها أنواع الفوانيس المتخذة من الشمع ، وأشكال الشموع ما بين كبيرة وصغيرة ومنها ما يزن عشرة أرطال (الرطل = ٤٠٠ جرام) ومنها ما يحمل على "العجل" ويبلغ وزن الواحدة منها القنطار (١٠٠ رطل) وذلك لاستعماله وقت الركوب لصلاة التراويح والخروج ليلا .

فيمر فى شهر رمضان من ذلك ما يجل عن الوصف ، وتستمر حوانيت الشمع مفتوحة إلى منتصف الليل لكثرة ما يشترى وما يكترى من الشموع الموكبية وبفضل هذا السوق وتقاليد تجارته نشأت فوانيس رمضان التى نعرفها الآن . وإلى وقت قريب كان "السمكرية" يهتمون منذ شهر شعبان بعمل الفوانيس التى توضع بداخلها الشموع ، ويبدعون فى أشكالها وألوان زجاجها ويزينون بها

واجهات حوانيتهم فيفرح بها الأطفال ويسعون لشرائها غير أن "تكنولوجيا" العصر الحديث أزاحت فوانيس الشموع" عن عرش رمضان ليحل محلها فوانيس تعمل بالبطارية ذات أشكال نمطية جامدة تخلو من روح الإبداع والإبتكار وتفتقد الأصالة وعبق الماضى التليد الذى كان توحى به فوانيس السكرية ، وإن ظهرت مؤخراً محاولات لإحياء تقاليد الفانوس القديم الذى أخذ ينتشر بكثافة مجدداً لا سيما فى الأحياء القديمة .

ولم يدانى سوق الشماعين حركة ونشاطاً فى شهر رمضان سوى الأسواق والحوانيت التى كانت تبيع أصناف الياميش وقمر الدين وعلى رأسها "سوق السكرية" داخل باب زويلة ، فكانت أنواع الياميش وقمر الدين تفرش على أبواب الحوانيت ويتسابق الشعب إلى الاغتراف منها ، وكانت رخيصة السعر فيتمتع بها الغنى والفقير وتقدم للضيوف ويوزع منها على أطفال الحارة حينما يطوفون على الدور بفوانيسهم الموقدة محيين أصحابها .

وكانت وكالة الأمير قوصون الساقى المنشأة حوالى ١٣٤٠م والباقى مدخلها إلى الآن بالقرب من باب النصر مقر تجار الشام ينزلون فيها ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والفستق والجوز واللوز والخرنوب ، وتزدحم الوكالة على وجه الخصوص فى شهر رمضان لإقبال الناس على شراء الياميش ولما تخربت تلك الوكالة انتقلت تجارة المكسرات إلى وكالة مطبخ العسل بحارة بالتمبكشية (بائعو التمباك) بحى الجمالية ، وكانت مخصصة لبيع أصناف النقل كالجوز واللوز ونحوها .

وقد تركت أسواق الياميش هذه انطباعاً قوياً لدى المصريين حتى وقتنا هذا حتى ليصعب على المصرى أن يتصور شهر رمضان بدون "ياميش" ، وقد قوبل قرار الحكومة المصرية فى بعض السنوات بحظر استيراد أصناف الياميش بعاصفة من السخرية وسيل من النكات اللاذعة ليس فقط بين الناس بل وعلى صفحات الجرائد وخاصة رسوم الكاريكاتور ، رغم أن الجميع يعلم علم اليقين أن صيام شهر رمضان جائز شرعاً بدون الياميش .. ولكنها أسواق القاهرة التى لازالت تعيش فى وجدان الشعب رغم ارتفاع الأسعار والأزمة الاقتصادية الخانقة .. وتقادم الزمن .

الشمعدان والتنور

لا شك أن مواعيد تناول الإفطار والسحور أثناء شهر رمضان ، قد أعطت لوحدات الإضاءة الإسلامية أهمية خاصة خلال شهر هذا الشهر ، وكانت المواد التى تصنع منها هذه الوحدات ، تعد مؤشراً صادقاً على الحالة المادية لمن يستعملونها . وبينما كانت بيوت الفقراء تضاء بواسطة "المسارج" الفخارية التى تستعمل "الزيوت" و"الفتيل" ، كانت منازل وقصور التجار والأغنياء مغمورة بأضواء "الشمعدانات" والتنانير أو "الثريات" ، وجميعها مصنوعة من المعادن وإن اختلفت فى مواد الإضاءة.

فالشمعدانات كانت مجرد حوامل معدنية للشموع الكبيرة ، توضع عادة فى قاعات الاستقبال بالمنازل ، حيث كان رب البيت يتناول طعامه مع من يستضيفهم من الفقراء أو الأصدقاء ، وخاصة فى وقت الإفطار . ويندر أن يستخدم الشمعدان فى المساجد والجوامع ، لأن مجال إضاءة الشموع ضيق نسبياً ، ولا يجدى كثيراً فى المساحات الشاسعة والمفتوحة لتيارات الهواء . وإن كان الرحالة ابن جبير قد لاحظ فى رحلته لمكة فى رمضان من عام ٥٧٨ هـ /١١٨٣ م أن الشمعدانات الضخمة كانت تستعمل فى إضاءة بعض جوانب الحرم المكى خلال أداء صلاة التراويح .

وتعد التنانير أو الثريات أكثر وحدات الإضاءة الإسلامية إحتفاء بمقدم شهر رمضان سواء فى بيوت الأغنياء أو الجوامع .

والتنور ، كتلة معدنية يتضاءل الشمعدان إلى جوارها ، وتختلف فى حجمها بحسب شراء صاحبها وأيضاً تبعاً للسقف الذى تعلق فيه . وفى كل تنور أكثر من مصباح يستعمل الزيت للإضاءة، وإلى حد بعيد يمكن اعتبار التنانير الإسلامية الأصل فى الثريات الحديثة المستعملة الآن .

وقد أشتهر عن بناة الجوامع من الخلفاء والسلاطين والأمراء أنهم كانوا يوقفون التنانير لإضاءة مساجدهم مثل الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى خصص لجامعى راشدة والأزهر تنورين من الفضة كان يستحيل دخولهما لهذين المسجدين إلا بعد خلع الأبواب وهدم أجزاء من الجدران .

ومما يؤسف له أن معظم التحف المعدنية الإسلامية لم تصل إلينا بسبب عمليات الصهر وإعادة التشكيل التى كانت تتم للتحف القديمة فى كل العصور .

ومن خلال الأمثلة القليلة التى تزدان بها متاحف المعمورة الآن يمكن القول بأن المسلمين كانوا يتجنبون استخدام الذهب وإلى حد ما الفضة فى عمل الشمعدانات والتنانير نظراً لكراهية الإسلام لإستخدامها الترفى ، ولذا نجد أن معظم المشغولات المعدنية ، قد صيغت من البرونز وهو خليط من

النحاس الأحمر والقصدير ، أو من النحاس الأصفر (وهو خليط من النحاس والزنك) وإن لم يعدم الأمر استخدام الفضة أو الذهب فى عمل الزخارف .

واستخدام "معدن" فى زخرفة المصنوعات المعدنية هو ما يعرف لدى أهل الصنعة "بالتكفيت" . ويتم ذلك بواسطة حفر الزخارف فى بدن الشمعدان أو التنور وملأها بأسلاك من معدن مختلف والطرق عليها حتى تتساوى مع مستوى سطح الأنية المعدنية وقد استخدم النحاس الأحمر فى زخرفة أوانى البرونز وشاع استخدام الفضة فى تطعيم مصنوعات النحاس الأصفر .

ويعزى إلى أهل الموصل بالعراق فضل ابتكار أسلوب التطعيم أو التكفيت ونقله إلى مصر والشام بعد ذلك فى العصرين الأيوبى والمملوكى . وقد كثرت فى مصر المصنوعات المعدنية التى تحمل أسماء صناع موصليين بعد اجتياح المغول لبغداد وسقوط الخلافة العباسية ، إذ أدت حالة الاضطراب والفوضى التى أعقبت سقوط بغداد إلى هجرة الصناع الموصليين إلى مصر .

وبفضل جهود صناع الموصل إزدهرت صناعة الشمعدانات والتنانير فى مصر وساعد على رواج منتجاتها الرخاء الاقتصادى الذى عم البلاد نتيجة لتحول طرق تجارة التوابل والبهار من الشرق الأقصى والهند إلى الطريق البحرى عبر المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى الموانئ المصرية والسورية على البحر المتوسط ، لتنقل بعد ذلك إلى أوروبا . وقد أفادت الدولة المملوكية من الرسوم المفروضة على تجارة الترانزيت هذه بعد أن نشر التتار الرعب والفزع حيث كان يمر الطريق البرى لهذه التجارة عبر آسيا إلى موانئ المتوسط .

وازدهر تبعاً لذلك "سوق الكفتيين" بالقاهرة ، بأنواع المصنوعات المعدنية المكفتة التى برع المصريون فى صنعها بعد أن أتقنوا فنها على أيدى الموصليين ، إلا أن احتكار سلاطين المماليك للتجارة أصاب هذا السوق ضمن ما أصاب المجتمع المصرى بأسره من إفتقار وإملاق ، فقل الإقبال على شراء منتجات الكفتيين حتى أن المقريزى يقول فى حوالى عام ١٤٢٠م أنه قد بقى بهذا السوق فى أيامه بقية من صناع الكفت قليلة"

وقد أتاح تدهور هذا السوق الفرصة للمدن الإيطالية التجارية وخاصة "البندقية" لترويج منتجاتها المعدنية التى حاولت بها تقليد المعادن الإسلامية خلال القرنين ١٥ ، ١٦م . وإن لم يستطع أهل البندقية تعلم صناعة التكفيت من الصناع السوريين الذين انتقلوا إلى البندقية ، واقتصرت مشغولاتهم على طرق الزخرفة الإسلامية الأخرى مثل استخدام الحز والتخريم .

وقد حرص الكفتيون على التمييز بين الشمعدانات والتنانير التى توضع بالمنازل ومثيلاتها التى توضع بالجوامع والمساجد ، عن طريق الزخرفة .

فالمواضيع الزخرفية لتنانير المساجد كانت تخلو من رسوم الكائنات الحية وتقتصر على الزخارف الهندسية والنباتية والكتابات العربية ، وذلك جرياً على عادة المسلمين فى تنزيه بيوت الله أن تحوى

ما فيه شبهة محاولة "تمثيل" خلق الله . ومن أمثلة ذلك ثريا من مسجد الحمراء بالأندلس محفوظة بمتحف الآثار بمدريد ، صنعت بأمر محمد الثالث س ٧٠٥ هـ ، حيث اقتصرت زخارفها على الرسوم النباتية المفرعة والكتابات العربية ، كما نجد أن العادة فى إيران قد جرت على أن ينقش على الشمعدانات نصوص من الشعر الإيرانى من قصة «الفراشة والشمع» وأباح صناع المعادن لأنفسهم استعمال الرسوم الآدمية والحيوانية فى تزيين الشمعدانات والتنانير التى تستخدم للإضاءة بالمنازل مثلما نجد فى شمعدان من النحاس المكفت بالفضة صنع باسم زين الدين كتبغا المملوكى وهو محفوظ بمتحف الفن الإسلامى ، وفيه تنتهى هامات الحروف العربية بأشكال آدمية .

وإلى أبعد من ذلك ذهب الصناع فى العصر الأيوبى فقد وصلتنا أوان معدنية عليها أسماء بعض سلاطين بنى أيوب وتحوى موضوعات زخرفية مسيحية تضم مناظر من حياة المسيح وصور القديسين والمحاربين إلى جانب الزخارف الأخرى العادية التى نراها على الأوانى الإسلامية المعاصرة .

وبمتحف الفنون الزخرفية بباريس قطعة معدنية عبارة عن شمعدان عليه اسم صانعه : داود بن سلامة الموصلى وتاريخ صناعة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨م) ، وتتألف زخارف الشمعدان من مناظير لحياة السيد المسيح .

ورغم ما أصاب صناعة المعادن الإسلامية عامة من تدهور فى العصر الحديث ، وما أدرك صناعة الشمعدانات والتنانير من جراء اختراع الكهربا على وجه الخصوص إلا أن الدواعى السياحية ، قد أدت إلى الحفاظ على بعض التقاليد القديمة فى صناعة المعادن وإلى الآن لازالت الشمعدانات والتنانير الضخمة تباع فى النخاسين بالقاهرة ، وإن اختفى منها التكفيت بالفضة والذهب لتحل محلها مادة "النيلو" وهى عبارة عن مادة سوداء تتكون من صهر نسب معينة من النحاس والرصاص والكبريت وملح النشادر ، وتوضع فى الأجزاء المحفورة بالزخارف .

وغنى عن القول أن بقاء صناعة هذه الوحدات الإسلامية التى كانت ألمع نجوم الإضاءة فى شهر رمضان ، داخل الهامش الانتاجى المخصص للسياحة ، أفضل بكثير مما اعتادت عليه "الراقصات" فى القرن الماضى وبداية القرن العشرين من الرقص بالشمعدانات !!

(((

المشكاوات

المشكاوات من أهم أدوات الاضاءة التى استخدمت فى العصور الوسطى وخاصة فى مصر والشام ، وقد احتلت مكانا أثيرا فى أوقات الاستزادة من الإضاءة خلال شهر رمضان

ويقصد بتعبير المشكاوات تلك الزجاجات أو القناديل التى كانت توضع فيها المصابيح ، وقد استمد هذا الاسم من الآية الكريمة التى شاع وردها عليها (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونية لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم) (سورة النور الآية ٣٥) ، وكانت هذه الآية القرآنية ترد عادة على المشكاوات حتى كلمة (يوقد) .

ومن نافلة القول أن نذكر أن كلمة مشكاة تعنى فى العربية «دخلة فى جدار» يوضع فيها المصباح ولا تعنى بحال من الأحوال وحدة الاضاءة كما يتضح من سياق الآية الكريمة ، ولكن جرى العرف على تسمية هذه المصابيح بالمشكاوات ولرب خطأ شائع كان أفضل من صحيح مهجور .

وتشبه المشكاة فى شكلها العام الزهرية ، فهى ذات بدن منتفخ ينساب إلى أسفل وينتهى بقاعدة ولها رقبة على هيئة قمع متسع . وبداخل المشكاة كان يوضع إناء صغير به الزيت والفتيل الذى يوقد للاضاءة عند صلاة المغرب من كل يوم ، ويقوم خادم المسجد بذلك العمل عن طريق إنزال المشكاوات من سلاسلها عند الفجر وإطفاء القناديل ثم يعيد تعليقها بعد الاضاءة عند المغرب ، وكان بناة الجوامع من السلاطين والأمراء يوقفون الأوقاف من أراضى وعقارات للانفاق من ريعها على المساجد ، وكان زيت قناديل المشكاوات من ضمن ما ينص على الالتزام بشرائه فى وثائق الوقف وعادة يوضع فيها زيت الزيتون أو زيت الشيرج (السمسم) .

ولا تختلف المشكاوات عن غيرها من مصنوعات الزجاج الإسلامى الذى كان يصنع بنفس الطريقة القديمة التى تتمثل فى صهر الرمل (أوكسيد السليكون) بعد خلطه بنسب معينة من الحجر الجيرى (كربونات الكالسيوم) بالإضافة إلى نسب من كربونات الصوديوم وأكاسيد أخرى ، ويشكل الزجاج بعد ذلك بواسطة النفخ تمهيداً لعملية الزخرفة .

وقد استخدمت فى زخرفة المشكاوات طريقة التذهيب والطلاء بالمينا وذلك عبر مراحل فنية متعددة ، إذ كان الصناع يضعون الزخارف المذهبة على «التحفة» بواسطة الريشة وذلك عند رسم

الخطوط الخارجية ، وبالفرشاة فى المساحات الكبيرة . وبعد أن تحرق المشكاة فى الفرن المرة الأولى يحدد موضوع الرسم باللون الأحمر ثم يطلى بالمينا المختلفة الألوان ، وهذه المينا يختلف قوامها حسب موضوع الرسم وبالتالى درجة لمعانها .

وكان طلاء المينا نصف الشفاف يتكون من ذائب الرصاص ثم يلون بالأكاسيد المعدنية : بالأخضر من أكسيد الحديد ، والأصفر من حامض الأنتيمون ، والأبيض ، وهو معتم تماماً ، من أكسيد القصدير . أما لون المينا الزرقاء والتى لعبت دوراً هاماً فى زخرفة المشكاوات ، فكانت تصنع من مسحوق اللازورد مع زجاج لا لون له .

أما الموضوعات الزخرفية التى كانت تزين أبدان المشكاوات بألوان المينا المتعددة والخطوط المذهبة، فقد خلت من الرسوم الآدمية والحيوانية ، واقتصرت على الزخارف الكتابية ورسوم النباتات والأزهار والأشكال الهندسية المتعددة .

ولا يخرج عن هذه القاعدة سوى بضع مشكاوات صنعت لبعض سلاطين المماليك من آل قلاوون ، واستخدمت فى زخارفها رسوم «البط» .

وإذا كان من السهل التعرف على المشكاوات التى صنعت لسلاطين ، فإن الأمر لم يكن كذلك دائماً بالنسبة للأمراء . فألقاب السلطان واسمه كانت تكتب بخط واضح على بدن المشكاة ويوضع اسمه فى أشرطة كتابية بأسفل وأعلى المشكاة أيضاً ، أما بعض الأمراء فكانوا يكتفون بوضع «رنكهم» . و«الرنك» كلمة فارسية تعنى «اللون» ، وهى تعنى فى العصر المملوكى «الشارة» التى توضع على البيوت والأماكن والأشياء المنسوبة إلى صاحب «الرنك» . ومعظم الرنوك يدل على وظائف أصحابها ، فشعار «الدوادار» الدواة ، وشعار «السلحدار» السيف ، والساقى شعاره الكأس، و«البريدى» شعاره درع مقسم إلى ثلاثة أقسام أفقية ثم اتخذ من «بغل البريد» رنكاً له بعد ذلك . ولما كانت هذه الوظائف حقاً مشاعاً بين أمراء المماليك جميعاً فإنه يصعب معرفة صاحب المشكاة التى يرد عليها «الرنك» دونما ذكر لاسمه .

ويبلغ إجمالى ما وصلنا من مشكاوات إسلامية نحو ثلاثمائة مشكاة كاملة يرجع معظمها إلى عصر المماليك ومن الصعوبة بمكان تحديد مكان صناعتها سواء فى مصر أو سوريا لتشابه طرق الصناعة والزخرفة بالبلدين فى هذا العصر ، ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بالقاهرة بمعظم هذه الشكاوات ويليه فى المرتبة الثانية متحف المتروبليتان بنيويورك . وتتوزع بعض المشكاوات أيضاً على الكنائس الأوروبية ، حيث حملها الحجاج الأوروبيون فى طريق عودتهم من بيت المقدس ووضعوها «كنذور» فى هذه الكنائس ، ولعل ذلك يوضح ما كان لهذه المشكاوات من قيمة مادية وفنية فى العصور الوسطى . ولا يفوتنا أن ننوه أن بعض هذه المشكاوات وصل إلى أوروبا ضمن ما سلبه الصليبيون فى حملاتهم على بلاد الشام من كنوز وتحف .

ومما يصيب المرء بالأسف أن صناعة هذه المشكاوات المذهبة والموهة بالمينا قد أصابها التدهور مع مطلع القرن ١٠ هـ / ١٦ م ، بعد أن تدهورت مجمل الأحوال الاقتصادية لدولة المماليك من جراء اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح الذى تحولت إليه تجارة الشرق الأقصى والهند مع أوروبا ، فحرمت مصر والشام من رسوم «الترانزيت» الهائلة التى كانت تحصل على هذه التجارة أثناء عبورها إلى أوروبا ونظراً لأن المشكاوات كانت من البضائع والتحف التى يقبل الأوروبيون على شرائها فى بداية عصر النهضة الأوروبية ، فقد قامت المدن الإيطالية وخاصة البندقية ، بتقليد المشكاوات المملوكية لسد العجز الناجم عن توقف مصر والشام عن انتاجها ، ولم يكتف أهل البندقية ببيع هذه المشكاوات فى أوروبا بل قاموا بتصديرها إلى مصر والشام ، وتحولت البلاد فى غضون سنوات قليلة إلى «مستورد» لهذه «التحف» التى جاءت أكثر خشونة وغلظاً وأبعد عن الذوق الفنى والثراء الزخرفى الذى كان يميز المشكاوات المملوكية ولكنها «عقدة الخواجة» التى أمسكت بتلابيب المسلمين فى عصور الانحدار والتدهور .

وتشهد صناعة الزجاج فى مصر الآن على وجه الخصوص ، محاولات جادة لاستيحاء أشكال المشكاوات فى إنارة المساجد والجوامع والأماكن السياحية وإن حل المصباح الكهربى مكان مصباح الزيت والفتيل . ولابد من الاعتراف بأن هذه المحاولات لم تتجاوز بعد حيز «الشكل» أو «الهيكل» ، إلى استخدام ألوان الذهب والمينا والأشكال والموضوعات الزخرفية التى اشتهرت بها المشكاوات المملوكية .

الخوانق والتكايا

كان شهر رمضان ، إذا ما حل تتجه أنظار المسلمين إلى «الخوانق» أو بيوت المتصوفة ، حيث كانت هذه الأبنية أكبر مواقع الاحتفاء الدينى بمقدم الشهر ، فتكثر بها قراءة القرآن ويحتشد سكانها من الصوفية لأداء الفروض الخمسة والتراويح بخشوع ترهب له القلوب وتدمع له الأعين .

ومن المعروف أن إنشاء مبان خاصة لسكن الصوفية تقليد إيرانى انتقل إلى مصر فى عصر الأيوبيين فقد أنشأ صلاح الدين أول خانقاه بالقاهرة وهى المعروفة باسم خانقاه سعيد السعداء من أجل محاربة الدعوة الشيعية التى رعتها الدولة الفاطمية قبله فى مصر، ونجح القائد السنى إلى حد بعيد فى جعل هذه الخانقاوات من مراكز الدعوة السنية التى أزالت كل أثر لعقيدة الشيعة الاسماعيلية فى مصر .

وحذا سلاطين المماليك حذو صلاح الدين فشيدوا المبانى الضخمة لإيواء الصوفية وتكفلوا بالإنفاق على ملبسهم ومأكلهم بل وحملوا عنهم نفقات السفر للحج ، وتنافس أمراء المماليك فى إنشاء الخانقاوات حتى وصل عددها بعد قرنين من حكمهم إلى أكثر من عشرين خانقاه .

وقد زودت منشآت الصوفية بكل ما يحتاجه أهلها ورتبت من أجل راحتهم الكثير من الوظائف التى يتولاها الصوفية أنفسهم سواء من المقيمين بالخانقاه أو من بين المترددين عليها حتى يتحقق للخانقاه استقلالها ويمكن للمتصوفة بها أن يعيشوا بمعزل تام عن المجتمع منقطعين للعبادة . فكانت الخوانق تزود بالمطابخ التى يطهى بها اللحم ، وعادة ما كان لحم الضأن حسب شروط الواقفين .

وفى كثير من المنشآت كان يعمل «الوازن» على ضمان وصول مقرر كل متصوف من الخبز واللحم والمرق حسب تعليمات الواقف ، وكان فى أغلب الأحوال ثلث رطل من اللحم وثلاثة أرطال من خبز القمح يومياً .

وإذا ما تعذر تقديم الطعام للصوفية داخل الخانقاه كان يتم صرف بدل نقدى لهم لتدبير ذلك ، خارجاً عما كان مخصصاً لهم من نقود لغسل ثيابهم بالصابون ، وكان وقتها ترفاً لا يقدر عليه إلا الأغنياء ، وكذلك لدخول الحمام فى كل شهر إن لم يكن مخصصاً لهم حمام برسم خدمتهم وأيضاً لشراء زيت للإضاءة ليلاً .

وجرت العادة فى نصوص أوقاف الخانقاوات أن يأمر الواقف بزيادة النفقات فى شهر رمضان على وجه الخصوص لكونه شهر البر والصدقات . فتزداد نفقات السكر الذى تتضاعف الكميات المستهلكة

منه فى هذا الشهر بسبب الإكثار من عمل الحلوى التى كانت توزع فى أيام رمضان ضمن طعام المتصوفة . ولم يقتصر أمر التوسعة فى شهر رمضان على توزيع السكر بل شمل ذلك أيضاً توزيع الطعام المجهز الذى كانت تحدد أصنافه أحياناً بالأرز واللحم والعسل وحب الرمان .

وفى إحدى الخوانق كان يفرق فى كل رمضان على متصوفها «كيزان» لشرب الماء وتبيض لهم قدورهم النحاس ويصرف لهم ما يكفل نظافة أيديهم من وصر اللحم .

وكما هى العادة فى العصر المملوكى لم يكن كل الذين قاموا بإنشاء هذه الخوانق والإنفاق عليها حتى بعد وفاتهم من المشهورين بالصلاح والتقوى، مثلما نلاحظ من وقائع سيرة «ابن غراب» الذى شيد خانقاه على الخليج المصرى «شارع بورسعيد الآن» فقد كان حسب وصف أحد معاصريه «غدارا» لا يتوانى عن طلب عدوه ولا يرضى من نكبته بدون إتلاف النفس، فكم ناطح كبشاً ونل مكانة وعالج جبالا شامخة واقتلع دولا من أصولها الراسخة وهو أحد من قام بتخريب إقليم مصر برفعه سعر الذهب.

ولا يختلف حال الصوفية ، أو معظمهم ، فى عصر المماليك عن حال مؤسسى الخوانق اشتغالا بالدنيا وصغائر الأمور ، إذ أفضى ظلم المماليك وعسفهم من ناحية ، والفقر الذى ساد عامة الشعب من ناحية أخرى إلى الدفع بالكثير من المصريين للإقبال على التصوف تخلصاً من الفقر والفاقه ويأساً من الحياة فضمت بيوت الصوفية الكثير من الدخلاء الذين لم يقبلوا على هذه الحياة رغبة فى الانقطاع للعبادة ولكن فراراً من قسوة الحياة ورغبة فى الهناء دون عناء .

وكانت النتيجة المنطقية لذلك أن الدنيا شغلت أذهان المقيمين ببيوت المتصوفة ، فابتعدوا عن التصوف والزهد بمعناه الدقيق وانصرفوا عن العبادة إلى البحث عن المال والمتاع فى ظل الأوقاف الواسعة التى تمتعت بها الخوانق حتى وجد من الصوفية من ارتبط بأكثر من خانقاه فى وقت واحد طمعاً فى المال .

وازداد الطين بلة فى العصر العثمانى الذى أصبحت الخوانق فيه تعرف «بالتكايا» ولا زالت كلمة «التكية» تعنى لدى أبناء الشعب المصرى الحصول على رغد العيش دون عمل أو مقابل ، ففى هذه التكايا كانت تمارس كل المعاصى التى تغضب الله وتتفشى الخزعبلات والخرافات التى ليست من صحيح الإسلام .

ورغم ما لحق الخوانق من تدهور بدءا من عصر المماليك . فإنها ظلت حتى مطلع القرن العشرين تقريباً محافظة على التقليد الذى صاحب نشأتها فى مصر ، وهو قصر السكنى فيها على غير المتزوجين إلا الشيوخ من كبار السن فهولاء فقط كان مصرح لهم باصطحاب زوجاتهم لدواعى خدمتهم ومنذ أعيد تنظيم الأوقاف أهمل أمر الخوانق والتكايا وجاء العصر الحديث بمفاهيمه التى وضعت الإسلام مرة أخرى فى خضم الحياة واعتبرت ضمناً أن انعزال المسلم هو خروج عن روح الدين .

المصحف الشريف

رمضان هو شهر القرآن فى ليلة القدر منه أنزلت أول آياته على الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) وفيه يحرص المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها على قراءته آناء الليل وأطراف النهار . فى البدء كان القرآن محفوظاً فى صدور الصحابة ، ومدوناً على مواد متباينة متعددة ، قد اختلفت فى أحجامها ، كما اختلفت فى مادتها ، فكانت قطعاً كبيرة وصغيرة من العظم ومن الخشب ومن الفخار ومن الحجر ومن جريد النخل ومن جلود الحيوان ومن الكتان ومن الرق .

وبعد استشهاد عدد كبير من حفاظ كتاب الله فى حروب الردة ، قام أبو بكر الصديق بمشورة عمر بن الخطاب (رضى الله عنهما) بجمع القرآن وتدوينه فى صحائف من الرق متشابهة فى الطول والعرض ، متفقة فى النوع ومرتبة بين دفتين ، وتولى ذلك الأمر الصحابى زيد بن ثابت .

وحفظ أبو بكر هذه الصحف لديه مدة حياته وعند وفاته انتقلت إلى عمر بن الخطاب ، ثم بمقتله انتقلت النسخة إلى ابنته حفصة أم المؤمنين التى عرفت فى عصرها بإتقانها للقراءة والكتابة .

وفى عصر الخليفة عثمان بن عفان (رضى الله عنه) حدث خلاف بين المسلمين فى قراءة القرآن ، فقام الخليفة بعمل نسخ من القرآن ترسل إلى الامصار وتكون أصلا لقراءة كتاب الله وكتابته يرجع إليها كلما دعت الحاجة . ومن أجل ذلك الغرض شكل الخليفة (لجنة) من الصحابة كان من بين أعضائها زيد بن ثابت وقد حددت مهمة هذه اللجنة فى أن تعمل على إخراج نص مكتوب للقرآن الكريم من الأصل المحفوظ عند السيدة حفصة أم المؤمنين ، وأوصى عثمان أعضاءها قائلاً «إذا اختلفتم وزيد بن ثابت فى شئ من القرآن فاكتبوه بلسان قريش» . وهكذا خرج إلى الوجود المصحف العثمانى أو المصحف الإمام ، الذى صار الأصل الوحيد الذى يرجع إليه ويعتمد عليه بعد أن قام الخليفة الأموى مروان بن الحكم بأخذ مصحف أبى بكر من عبد الله بن عمرو وغسل صحائفه ثم شقها وأحرقها كما أحرقت من قبل جميع المصاحف السابقة فى وجودها على تشكيل تلك اللجنة .

وفى عصر عثمان تلقت المراكز الإسلامية المصحف الشريف مكتوباً ومعه صحابى يتلوه على الناس ويبصر أهل كل ولاية بقراءته صحابى تلقاه بدوره من فم النبى صلوات الله عليه . وقد أقبل الناس فى شتى البقاع الإسلامية على نسخ المصحف الإمام اقبالاً عظيماً وانتشر فى طول البلاد الإسلامية وعرضها .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الصحابة قد اختلفوا حول التسمية التى ينبغى أن تطلق على الصحف التى دون عليها القرآن وجمعت بين دفتين ، فقال بعضهم سموه السفر ، وقال آخر رأيت مثله فى الحبشة يسمى المصحف فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف وهكذا ذاعت كلمة «المصحف» للدلالة

على الكتاب المدون به القرآن الكريم .

ومن المعروف أن القرآن دون في البداية بحروف عربية قريبة في رسمها من الخط النبطى الذى يعتبر الجد الأعلى للخط العربى والتأمل فى المصاحف الأثرية القديمة يكشف لنا فى وضوح عن مظاهر لا نعرفها اليوم فى كتابتنا العربية ، ففيها حروف يعبر كل واحد منها عن صوتين مختلفين لا صوت واحد مثل حرف الدال فقد يكون (د) أو (ذ) ومثل حرف الراء فقد يكون (ر) أو (ز) وكذلك حروف السين والصاد والطاء والعين والفاء ، ومنها أيضاً حروف يعبر الواحد منها عن عدة أصوات مختلفة مثل حرب الباء فقد يكون (ب) أو (ت) أو (ث) ومثل حرف الجيم فقد يكون (ج) أو (ح) أو (خ) والواقع أن هذه المظاهر ، وعدم إثبات المدات (كالألف واللام) قد أدت مجتمعة إلى لحن البعض عند قراءة القرآن وخاصة من المسلمين غير العرب ، وهو ما دفع «أبا الأسود الدؤلى» أولا إلى ابتكار نقاط تدل على الضمة والفتحة والكسرة والسكون ، وأعقبه بعد ذلك نصر بن عاصم عندما ابتكر تنقيط الحروف المتشابهة بالطريقة المعروفة لنا الآن .

وبذلك كان القرآن دافعاً لتطوير الكتابة العربية وإكسابها الطابع الجمالى المميز ، وهو ما نجد صداه فى المصاحف الشريفة التى وصلتنا من العصور المختلفة ، فجميعها قد كتبت بخط حسن منسوب ، وفى مرحلة لاحقة أصبح المصحف مجالا لتطوير فنون المصحف من خط وزخرفة وتذهيب وتجليد فاستعمل الخط الكوفى المزوى فى كتابة المصاحف خلال القرون الأولى ثم بدأ استخدام الخط النسخى اللين ، ويعد الخطاط البغدادى «ابن البواب» الرائد الأول فى استخدام هذا النوع من الخط فى كتابة المصحف وعنه أخذ الأتراك العثمانيون ، وإلى حد بعيد فإن خط الكثير من المصاحف المتداولة بأيدينا الآن يعد امتداداً فنياً لمدرسة ابن البواب ومدرسة خلفه ياقوت المستعصمى . وإلى جانب الخطين الكوفى والنسخى استعمل النساخون أنواعاً أخرى من الخط العربى مثل خط الطومار والخط المغربى والخط الغبارى .

أما زخرفة المصحف فقد بدأت أولا بزخرفة الفواصل بين الآيات وتمييز بدايات الأجزاء والأحزاب وسرعان ما شقت الزخرفة سبيلها فى بطء وتأن وسارت فى طريقها من البساطة إلى التعقيد حتى استقرت علي استعمال زخرفة التوريق (الارابيسك) فى تزيين الصفحات الأولى والأخيرة من المصحف الشريف ، مع صفحات المصحف بإطار زخرفى . ولقد كانت أحب الألوان إلى الفنانين الذين أبدعوا فى تزيين المصاحف هما اللونان الأزرق والذهبى ويلعب هذان اللونان فى الفن الإسلامى دوراً عظيماً سواء استعمل كل لون بمفرده أو اجتمعا معاً فى تحفة واحدة كما هو الحال فى المصاحف .

أما تجليد المصاحف وتذهيبها فقد بلغ شاواً كبيراً بفضل عناية المسلمين وحرصهم على حفظ كتاب الله سواء أكان مدوناً على الرق أو الورق ، وتقف البشرية بكل تقدمها العلمى فاغرة الفاه مما تضمه المتاحف العالمية من روائع جلود المصاحف المزخرفة بالتذهيب أو بالضغط .

رحالة فى رمضان

ابن جبير
ابن بطوطة
العياشى
جيرار دى نرفال
البغدادى
العبدرى
ادوارد لين
محمد السنوسى

ابن جبير فى مكة
رمضان ٥٧٨ هـ

أبن جبير ، رحالة عربى من الأندلس ، اسمه كاملاً هو أبو الحسين محمد بن جبير الكنانى» ، وقد ولد فى بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥م) وتعلم على أبيه وغيره من علماء عصره ثم أصبح كاتماً لأسرار أمير غرناطة أبى سعيد بن عبد المؤمن الموحدى فاستوطن غرناطة .

ويقال أن الأمير الموحدى استدعاه يوماً ليكتب عنه كتاباً وهو على شرابه فمد يده إليه بقدح من نبيذ ، فاعتذر ابن جبير وأبى واسترجع فأقسم عليه الأمير إيماناً مغلظة ليشربن منها سبعاً فشر بها صاغراً مكرها ثم ردها عليه أبو سعيد سبعة أقداح من الدنانير .

لذلك أزمع ابن جبير الحج بتلك الدنانير تكفيراً عن خطيئته ، وأقام سفره سنتين يدون ملاحظاته ومشاهداته فى كتابه «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» وهو المعروف باسم «رحلة ابن جبير» .

وقد عايش ابن جبير فى رحلته تلك شهر رمضان مرتين أولاهما كانت فى عام ٥٧٨ هـ وهو بمكة المشرفة والثانية فى العام التالى عند مروره بصقلية أثناء رحلة العودة إلى الأندلس .

وكان أول ما لاحظه بمكة أن أميرها «مكثر» كان من بيت علوى موال للفاطميين رغم مرور أحد عشر عاماً على سقوط دولتهم على يدى صلاح الدين الأيوبى ، حتى أنه أمر بصيام يوم الشك (٣٠ شعبان) وذلك «لموافقته مذهبه ومذهب شيعة العلويين ومن إليهم لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً»

وقد احتفظ لنا ابن جبير بوصف دقيق وشامل لما كان يجرى بالحرم المكى من مظاهر الاحتفال بشهر رمضان . فسجل أول ما سجل ذلك الاهتمام الكبير بزيادة أحجام وأعداد وسائل الإضاءة منذ صلاة المغرب وحتى الفجر ، وهو ما تتفق عليه كافة الأقطار الإسلامية منذ العصور الوسطى إلى يومنا هذا ، فضلاً عن تجديد فرش الحرم من الحصير عند دخول أول أيام الشهر الكريم .

ومن غرائب ما دونه ابن جبير أن صلاة التراويح كانت تقام بالحرم فى نواح متفرقة بحيث تخصص كل ناحية لفرقة بإمامها ، وعدد أئمة التراويح وهم الإمام الخاص بالشافعية وإمام الحنابلة وثالث للحنفية ورابع للزيدية أما الخامس فهو إمام المالكية .

ولما كان ابن جبير ، شأنه فى ذلك شأن المغاربة وأهل الأندلس ، من المالكية فقد اهتم بأمر مشايعيه فى المذهب ، حيث ذكر أنهم اجتمعوا فى هذا العام على ثلاثة قراء يتناوبون تلاوة القرآن وأنهم أحفل جمعاً وأكثر شمعاً لأن قوماً من التجار المالكيين تنافسوا فى ذلك ، فجاءت جبهة المالكية تروق حسناً وتأخذ بالأبصار نوراً»

ويبدو من سياق حديثه بعد ذلك أنه كان هناك أئمة آخرون غير الخمسة الكبار الذى عينهم حتى كاد لا يبقى فى المسجد زاوية ولا ناحية إلا وفيها قارئ يصلى بجماعة خلفه .

وكان المصلون وراء إمام الشافعية فيما يبدو من حديث ابن جبير هم الأكثر عدداً ، وقد لاحظ أيضاً أنه يزيد فى ركعات التراويح حتى تبلغ العشرين خارجاً عن الشفع والوتر مع تعدد مرات الطواف فيما بينها .

وقد حرص الرحالة الأندلسى على أن يشير إلى أحد الأئمة المالكية فى الحرم وهو الفقيه الزاهد الورع «أبو جعفر بن على الفكى القرطبى وقراءته ترق الجمادات خشوعاً» .

أما التسحير خلال رمضان فكان يتم من المئذنة التى فى الركن الشرقى للمسجد الحرام وذلك بسبب قربها من دار شريف مكة فيقوم "المؤذن الزمزمى" بأعلاها وقت السحور داعياً ومذكراً ومحرضاً على السحور «ومعه أخــوان صغيران يجاوبانه ويقاولانه» .

ونظراً لترامى الدور بعيداً عن الحرم المكى حيث يصعب وصول صوت المؤذن كانت تنصب فى أعلى المئذنة «خشبة طويلة فى رأسها عمود كالذراع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران لا يزالان يوقدان مدة التسحير فإذا قرب تبين خطى الفجر ووقع الإيذان بالقطع مرة بعد مرة حط المؤذن المذكور القنديلين من أعلى الخشبة وبدأ بالآذان وثوب المؤذنون من كل ناحية بالآذان»

وعندما يرى أهل مكة من سطوح ديارهم المرتفعة أن القنديلين قد أطفئا علموا أن الوقت قد انقطع» .

وقد اهتم ابن جبير بأن يسجل مطولاً دخول الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخى صلاح الدين إلى الحرم وخضوع الأمير مكثر له وتقبله الخلع التى خلعها عليه ، ويعد ما كتبه بشأن هذه الحادثة التاريخية من النصوص التوثيقية نادرة التكرار .

ومن المظاهر التى حرص على تدوينها ختم القرآن الكريم فى كل وتر من الليالى العشر الأواخر فى رمضان حيث يتنافس أبناء أهل مكة من الصبية فى ختمه والاحتفال بذلك بإيقاد الشموع والثريات وتقديم الطعام . وقد نوه ابن جبير بابن الإمام الحنفى للحرم الذى ختم القرآن فى ليلة خمس وعشرين وأعقب ذلك بخطبة بليغة مست شغاف القلوب على صغر سن الخطيب .

وأشار أيضاً إلى غلام مكى من ذوى اليسار دون سن الخامسة عشر احتفل به أبوه احتفالاً بديعاً عند ختمه للقرآن فى ليلة ثلاث وعشرين وذلك أنه أعد له ثرياً مصنوعة من الشمع ذات غصون علقت فيها أنواع الفواكه الرطبة واليابسة وأعد لها شمعاً كثيراً «ووضع وسط الحرم شبيه المحراب المربع أقيم على قوائم أربعة تدلت منه قناديل مسرجة وأحاط دائر المحراب المربع بمسامير مدببة الأطراف غرز فيها الشمع ، وأوقدت الثريا المغصنة ذات الفواكه ... ووضع بمقربة من المحراب مشير مجلل بكسوة مجزعة مختلفة الألوان ، وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم وقد ملئ المسجد بالرجال والنساء وهو فى محرابه وحوله الشموع ..» .

ويبلغ تأثر ابن جبير مداه بما يقع من مظاهر الاحتفاء برمضان فى ليلة السابع والعشرين فيؤكد أنه لا يوجد شئ يعدل ختم القرآن فى تلك الليلة «خلف المقام الكريم وتجاه البيت العظيم وأنها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل سائر البقاع للحرم» .

ففى تلك الليلة كانت تنصب أعواد من الخشب تحمل الشموع والمصابيح إزاء حطم إمام الشافعية فضلاً عن تعليق ثريات النحاس فى أنحاء الحرم ، ويتغالى القوم فى زيادة الإضاءة حتى أن صبيان مكة أحدقوا بشرفات الحرم وقد وضعت بيد كل واحد منهم كرة من الخرق مشبعة سليطاً فوضعوها متقدة فى رؤوس الشرفات «وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحيها الأربع فجعلت كل طائفة تبارى صاحبتها فى سرعة إيقادها فيخيل للناظر أن النار تثب من شرفة إلى شرفة لخفاء أشخاصهم وراء الضوء» ذلك مع ارتفاع الأصوات بالتكبير قبل أن يبدأ القاضى صلاة العشاء الآخرة مبتدئاً بسورة القدر التى انتهى أئمة الحرم فى الليلة قبلها فى القراءة إليها ، وبعد خطبة مؤثرة يعود الأئمة لإقامة تراويحهم كل مع جماعته .

وفى ليلة التاسع والعشرين اختتم سائر الأئمة التراويح وأضيئت الأنوار بالثريات وشمعدان الشمع بنفس الكيفية السابقة احتفالاً بختام الشهر المبارك .

ورغم أن الرحالة الأندلسى كان مالكياً إلا أنه انتقد خطبة إمام المالكية فى ليلة تسع وعشرين لأنهما «منتزعة من خطبة الصبى ابن الإمام الحنفى فأرسلها معادة إلى الأسماع ثقيلاً لحنها على الطباع» .

وما أن ثبتت رؤية هلال شوال حتى أوقدت أعالى المآذن من الأربع جهات فى الحرم وأوقد سطح المسجد الذى فى أعلى جبل أبى قبيس «وأقام المؤذن ليلته تلك فى أعلى سطح قبة زمزم مهللاً ومكبراً ومسبحاً وحامداً» .

ويذكر ابن جبير أن صلاة العيد أقيمت بالمسجد الحرام ، وأن الناس بكروا بالحضور وقد لبسوا أثواب عيدهم ، وبعد فراغ الخطبة أقبل بعضهم على بعض «بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء مسرورين جذلين فرحين بما آتاهم من فضله وبادروا إلى البيت الكريم فدخلوا بسلام آمنين مزدحمين عليه فوجاً فوجاً فكان مشهداً عظيماً وجمعاً بفضل الله تعالى مرحوماً» .

وكانت آخر مظاهر الاحتفال بمقدم أول أيام عيد الفطر ، بعد انتشار الناس من المصلى وقضاء سنة السلام بعضهم على بعض «زيارة الجبانة بالمعلى تبركاً باحتساب الخطا للصالحين من الصدر الأول وسواه» .

ثم قبض لابن جبير أن تقذف به تقلبات الجو أثناء رحلته فى العودة إلى الأندلس إلى شاطئ صقلية فى رمضان من العام التالى ليعاين الفارق الهائل بين ما رآه فى مكة وبين ما خبره فى هذه البلاد بعدما تغلب عليها النورمانديون وأزاحوا المسلمين عن حكمها .

❨ ❨ ❨

ابن جبير فى صقلية

لم يصادف ابن جبير فى حياته أياماً كتلك التى مرت به طوال شهر رمضان الكريم من عام ٥٧٩هـ إذ قضى هذا الشهر وهو فى طريق عودته للأندلس بجزيرة صقلية ، وقد حط ابن جبير عصا ترحاله على شواطئ هذه الجزيرة بعد أن عاين الموت بسبب أهوال البحر التى مزقت المركب الذى كان يستقله.

ويروى لنا الرحالة الأندلسى أنه أستطلع على ظهر البحر أهلة أشهر رجب وشعبان ورمضان وأمضى الأيام الثلاثة الأولى من رمضان فوق ظهر المركب وهو متجه لمدينة «مسينة» الصقلية .

وتعد مشاهدات ابن جبير فى صقلية ، من أهم النصوص التاريخية التى تحدثنا عن أحوال المسلمين بالجزيرة قبل أن يمر قرن كامل على قيام النورمانديين ، بالاستيلاء على صقلية من أيدى الحكام المسلمين المتنازعين ، وكانت هذه النازلة فى عام ٤٨٤ هـ .

والحقيقة الماثلة فى رواية ابن جبير أن المسلمين كانوا حتى وقت زيارته يشكلون نسبة لا بأس بها من السكان ولا سيما فى بعض قرى الريف والمدن التجارية الكبيرة مثل ثرمة وباليرمو فضلاً عن اشتغالهم بالأعمال الادارية لدى النورمانديين وكذا التجارة والحرف الصناعية المختلفة .

والأهم من ذلك أن مظاهر الحكم الإسلامى بحضارته المميزة واللسان العربى المبين كانت مازالت ماثلة للعيان حتى فى قصر الملك النورماندى بمدينة باليرمو .

فعندما نزل ابن جبير صحبة المسلمين إلى شاطئ مسينة وجد الملك غليام هناك فقابلهم بما ألفه من حكام الجزيرة المسلمين قبله ، إذ أمر باعفائهم من الجمارك ورسوم كراء الزوارق التى حملتهم للشاطئ وسدد عنهم هذه الأعباء بعدما رأى عجزهم عن أداء ذلك . ويبدو أن عادة القوم فى هذا الميناء كانت قد درجت على الاستيلاء على أموال المسلمين الذين تصادف سفنهم سوء الطالع فتجنح بهم إلى شاطئها ، ولكن وجود الملك الصقلى أنقذ ابن جبير ورفاقه من النهب والسبى .

وقد لاحظ ابن جبير أن «مسينة» التى تستقبل تجارات أوروبا رغم رخص أسعارها ورواج تجارتها وأمن طرقاتها كانت تشعره بأنه «غريب الوجه واليد واللسان» ذلك لأنها «معمورة بعبدة الصلبان يمشون فى مناكبها ويرتعون فى أكنافها» . أما المسلمون الذين أمنوا على أملاكهم وضياعهم فقد فرضت عليهم أتاوة يؤدونها فى فصلين من العام ، وهم «نفر يسير من ذوى المهن» .

ومن المسلمين الذين صادفهم ابن جبير بهذه المدينة «يحيى بن فتيان الطراز» وهو يطرز بالذهب

فى طراز الملك (أى مصنع نسيج لأقمشة الملك) وآخر من وجهاء وكبراء المدينة يدعى «عبد المسيح» وهو من الذين يكتمون إيمانهم .

وقد أصر هذا الوجيه على استضافته ورفاقه فى رمضان ليبوح لهم بسره المكنون «بعد مراقبة منه فى مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه» . وأفاض «عبد المسيح» فى الحديث عن مراعاة المسلمين عند مرورهم بالميناء «واستهداء أدعيتهم والاغتباط بما نتلقاه منهم من تحف تلك المشاهد المقدسة لنتخذها عدة للايمان وذخيرة للأكفان» وفى نهاية هذه الاستضافة أجزل الفتى العطاء لابن جبير ورفاقه بعدما تفطرت قلوبهم له إشفاقاً وهم يهدونه بعض ما حملوه من مكة والمدينة .

وبعد مغادرة مسينة عرج الرحالة الأندلسى على مدينة شفلودى التى وصفها بأنها مدينة ساحلية كثيرة الخصب واسعة المرافق منتظمة أشجار الأعناب وغيرها مرتبة الأسواق وتسكنها طائفة من المسلمين .

ومن الملاحظات ذات المغزى التى أوردها ابن جبير أن المدن الكبيرة كانت على الدوام أكثر تسامحاً مع المسلمين بعكس الحصون البحرية والقرى الريفية الصغيرة . وهو ما يذكره عن مدينة «ثرمة» التى للمسلمين فيها «ربض كبير لهم فيه المساجد» حيث قابلته طوائف النصارى هو ورفاق رحلته بالسلام والمؤانسة . «فرأينا من سياستهم ولين مقصدهم مع المسلمين ما يوقع الفتنة فى نفوس أهل الجهل» .

وقد أهتم ابن جبير بالتجول فى المدينة وقد كانت من حواضر المسلمين الهامة فى صقلية حيث شاهد «قصر سعيد» على بعد فرسخ منها وهو مسكن للعباد من المسلمين «وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع» وفى أعلاه مسجد «من أحسن مساجد الدنيا بهاء» .. مفروش بحصر نظيفة لم ير أحسن منها صنعة وقد علق فيه نحو الأربعين قنديلاً من أنواع الصفر (النحاس) والزجاج وعندما بات ليلته بالمسجد سمع لأول مرة منذ رحلته البحرية أذان الصلاة ولقى خلال إقامته كرماً زائداً من الساكنين بالقصر وقد كان لهم إمام يصلى بهم الفريضة والتراويح فى شهر رمضان . وروى أيضاً عن قصر آخر يبعد عنه حوالى الميل ويعرف بقصر جعفر .

أما فى باليرمو فقد كان حال المسلمين أفضل عما كان سائداً فى بقية الجزيرة فلهم بها رسم باق من الإيمان «يعمرون أكثر مساجدها ويقيمون الصلاة بأذان مسموع ولهم أرباض قد أنفردوا فيها بسكناهم عن النصارى . والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى (الخليفة) .. ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون فى وقيده (إنارته) فى هذا الشهر المبارك . وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن» .

«ورغم هذا التسامح الذى أبداه النورمان تجاه المسلمين إلا أن ذلك لم يحل دون قيام مذابح وانتهاكات واسعة أدت إلى القضاء على كل أثر للوجود الإسلامى والحكم العربى بعد سنوات قلائل من زيارة ابن جبير ، وهو ما لاحظه عندما ذكر أن المسلمين مع هذا التسامح «غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ولا أبنائهم» .

ومن باليرمو رحلت قافلة ابن جبير إلى مدينة عربية مسلمة هى بلدة «علقمة» وهى كبيرة متسعة فيها السوق والمساجد وسكانها وأيضاً سكان ما حولها من الضياع الممتدة على الطريق من باليرمو إليها جميعاً من المسلمين .

وكانت مدينة أطرابنش هى آخر ما عرف من صقلية من بلاد يعيش بها المسلمون وكانت لهم فيها المساجد مثلما للنصارى بها الكنائس . وقد صلى ابن اجبير العيد بها بعدما ثبت عند حاكم إطرينش (وهو مسيحى) بشهادة عدول أنه قد أقصر هلال شهر رمضان «وكان مصلانا فى هذا العيد المبارك بأحد مساجد أطرابنش المذكورة مع قوم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلى لعذر كان لهم فصلينا صلاة الغرباء» .

ويبدو أن قرب المدينة البحرية من الشاطئ التونسى (مسيرة يوم وليلة فى البحر) كان سبباً فى علاقات وثيقة مع المسلمين أدت إلى تميزها بالتسامح حتى أنه عندما خرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم وانصرفوا بالطبول والبوقات لم يتعرض لهم أحد «فعجبنا من ذلك ومن أغضاء النصارى لهم عليه» . ويذكر ابن جبير أن البحر كان محيطاً بأطرابنش من ثلاث جهات وأن أهلها يرون أنه لابد للبحر من أن يغمرها فى يوم من الأيام .

وعلى هامش هذه الرحلة الرمضانية التى عاين فيها ابن جبير أحوال المسلمين فى صقلية عنى رحالتنا بالحديث عن خصب أراضى الجزيرة وفوران بركانها الشهير (فيزوف) وما تحفل به من عيون وينابيع معدنية . وتعتبر ملاحظاته الدقيقة عن التأثير الباقى للحضارة الإسلامية فى تنظيم البلاط النورماندى وحياة السكان من أدق وأشمل ما كتب فى هذا المضمار .

فحسب ما دونه ابن جبير كان غليام ملك صقلية يقرأ ويكتب بالعربية و«علامته» أى توقيعه «الحمد لله حق حمده» وكانت علامة أبيه «الحمد لله شكراً لأنعمه» وهو كثير الثقة بالمسلمين ويلجأ إليهم فى المهم من أشغاله حتى أن المسؤول عن مطبخه رجل من المسلمين وله أيضاً جملة من العبيد السود المسلمين ووزراؤه وحجابه الفتيان كذلك من المسلمين . «وهو يتشبه فى الانغماس فى نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم أبهة الملك وإظهار زينته بملوك المسلمين» .

وجميع الجوارى فى قصر «غليام» من المسلمات حتى «أن الأفرنجية من النصرانيات تقع فى قصره فتعود مسلمة ، تعيدها الجوارى المذكورات مسلمة وهن على تكتم من ملكهن فى ذلك كله»

وقد حدثت بالجزيرة عدة زلازل مرجفة «ذعر لها هذا المشرك فكان يقول لهم ليذكر كل أحد منكم معبودة ومن يدين به» .

أما فى المجتمع المسيحى ذاته فقد تركت حضارة الإسلام طابعها المميز وهو ما يبدو واضحاً من ملاحظتين أهتم ابن جبير بتسجيلهما ، الأولى منهما تتصل بتشييد النصارى «كنائس برسم مرضاهم» تماماً كما فعل المسلمون بتشييدهم للبيمارستانات بمصر والشام ، والثانية متعلقة بأزياء النساء .

ففى أثناء إقامته خلال شهر رمضان بمدينة باليرمو وقع الاحتفال بعيد الميلاد وخرج النصارى إلى كنيستهم الكبيرة (كنيسة الانطاكى) فاسترعى انتباهه أن «زى النصرانيات فى هذه المدينة (هو) زى نساء المسلمين فصيحات الألسن ملتحفات متنقبات . خرجن فى هذا العيد المذكور وقد لبسن ثياب الحرير المذهب والتحفن اللحفة الرائقة وانتقبن بالنقب الملونة وانتعلن الأخفاف المذهبة وبرزن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة النساء المسلمين من التحلى والتخضب والتعطر فتذكرنا على جهة الدعابة الأدبية قول الشاعر

إن من يدخل الكنيسة يوماً ∴ يلق فيها جآذرا وظباء .

وغير تلك الشذرات العديد من الملاحظات المفيدة التى قيدها الأندلسى الأريب فى رحلته الرمضانية بأنحاء جزيرة صقلية أندلس العرب الثانية بأوروبا .

(((

ابن بطوطة فى دمشق

رمضان ٧٢٦ هـ - ٧٤٩ هـ

من طنجة ببلاد المغرب خرج محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى ، المشهور بابن بطوطة فى ١٧ من شهر رجب عام ٧٠٣ هـ (٢٤ فبراير ١٣٠٤ م) قاصداً حج بيت الله الحرام ، ولكن الفتى ابن الثانية والعشرين سرعان ما أحب الترحال . وتردد فى الأسفار فيما بين الأندلس غرباً وحتى أقاصى آسيا شرقاً . وقد أملى ابن بطوطة رحلاته على الأديب محمد بن جزى الكلبى ، فانتهى من كتابتها عام ١٣٥٦م وأطلق عليها اسم «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» .

وقد حل بدمشق الشام غير مرة ، وصادف فيها شهر رمضان من عام ٧٤٩ هـ ومما ذكره متصلاً بالشهر الكريم أن من فضائل أهل دمشق «أنه لايفطر أحد منهم فى ليالى رمضان وحده البتة ، فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء فإنه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ، ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ، ومن كان من الضعفاء والبادية ، فأنهم يجتمعون كل ليلة فى دار أحدهم أو فى مسجد ويأتى كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً» .

ودلل ابن بطوطة على انتشار هذه الفضيلة بما وقع له مع مدرس المالكية في دمشق وهو الشيخ نور الدين السخاوي ، وهو من أبناء قرية «سخا» بدلتا مصر كما يتضح من اسمه ، والعلة فى تقاربهما واضحة ، إذ كان الشيخ مالكياً شأنه فى ذلك شأن أغلب أهل المغرب والأندلس ومن بينهم ابن بطوطة .

فقد رغب الشيخ السخاوى أن يفطر الرحالة الطنجى عنده فى ليالى رمضان ، ومكث ابن بطوطة بالفعل أربع ليال عند مدرس المالكية ثم أصابته الحمى وأضطر للغياب عنه فإذا بالسخاوى يبعث فى طلبه ويحمله على الحضور إلى داره على ما به من المرض . وبات ابن بطوطة ليلته وعندما حاول المغادرة صباحاً قال له الشيخ أن أحسب دارى كأنها دارك أو دار أبيك أو أخيك وأمر بإحضار طبيب «وأن يصنع لى بداره كل ما يشتهيه الطبيب من دواء أو غذاء وأقمت كذلك عنده إلى يوم العيد وحضرت المصلى وشفانى الله تعالى مما أصابنى» .

ويذكر ابن بطوطة أيضاً أن دروس الفقه والحديث كانت تنتظم بالجامع الأموى خلال شهر رمضان

ويحضرها الجم الغفير من الفقهاء وطلاب العلم . وعند إقامته بدمشق فى رمضان عام ٧٢٦ هـ سمع ابن بطوطة جميع صحيح البخارى خلال أربعة عشر مجلساً أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان وآخرها الثامن والعشرون منه . وكان ذلك على «الشيخ المعمر، رحلة الآفاق، ملحق الأصاغر بالأكابر شهاب الدين أحمد بن أبى طالب بن أبى النعم بن حسن بن على بن بيان الدين مقرئ الصالحى المعروف بابن الشحنة الحجازى» . ويبدو أن ابن الشحنة كان هو الآخر مالكى المذهب . إذ سمع ابن بطوطة صحيح البخارى «بقراءة الإمام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبى محمد القاسم بن يوسف البرزالى الأشبيلى الأصل الدمشقى» . ولعل تلك العلة المذهبية هى التى دفعت بابن بطوطة للجلوس فى دروس ابن الشحنة .

ولم يكتف ابن بطوطة بذلك بل استمع أيضاً إلى جملة من الشيوخ خلال تلك الفترة وقد أجازوه جميعاً ومن بينهم شهاب الدين أحمد المقدسى وعبد الرحمن النجدى ويوسف المزنى الكلبى وعلاء الدين على الشافعى والشريف محيى الدين يحيى العلوى والمحدث مجد الدين القاسم بن عبد الله الدمشقى وشهاب الدين أحمد بن فلاح الاسكندرى . وكما يظهر من قائمة أسماء المشايخ المطولة أن دمشق كانت آنذاك قبلة لأهل العلم من القدس ونجد ومصر بغض النظر عن مذاهبهم ، وأن الانتماء المذهبى لابن بطوطة لم يقف حائلاً دون تتلمذه على بعض أئمة الشافعية .

ومن الملفت للنظر أن دروس رمضان بجامع دمشق كانت تستوعب أيضاً عدداً لا بأس به من السيدات اللاتى جلسن للتدريس وأجزن رجالاً أيضاً كان من بينهم ابن بطوطة الذى ذكر أن من بين من أجازوه إجازة عامة «الشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحرانى والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسى» .

وهكذا فقد أنفق ابن بطوطة أيام رمضان بدمشق موزعاً بين استماع الدروس واستضافات أهل الكرم .

ابن بطوطة فى بلاد الروم
رمضان ٧٣٢ هـ

يعنى ابن بطوطة بتسمية بلاد الروم تلك المناطق من آسيا الصغرى التى نجحت قبائل الترك فى الاستيلاء عليها من أيدى الروم البيزنطيين ، وقد زارها فى بداية ظهور نجم الدولة العثمانية فى المرحلة التى سبقت نجاح آل عثمان فى السيطرة على المدن التى كانت تحكمها الأسر التركية الاقطاعية وهى التى توجت بدخول السلطان محمد الفاتح إلى القسطنطينية ليضع نهاية طال انتظارها للدولة البيزنطية .

وقد أظل شهر رمضان رحالتنا المغربى وهو بمدينة «أكريدور» التى وصفها بأنها عظيمة كثيرة العمارة حسنة الأسواق ذات أنهار وأشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء . وكان سلطان أكريدور آنذاك يعرف بأبى اسحاق بك بن الدندار بك «من كبار سلاطين تلك البلاد ، سكن ديار مصر أيام أبيه وحج وله سيرة حسنة» .

وخلال الأيام التى قضاها ابن بطوطة بالمدينة أثناء شهر رمضان لاحظ أن حاكمها «يقعد فى كل ليلة منه على فراش لاصق بالأرض من غير سرير ويستند إلى مخدة كبيرة» ويجلس الفقيه إلى جانبه يليه ابن بطوطة وبعد ذلك أرباب الدولة والأمراء . وعندما يحين وقت الافطار يؤتى بالطعام إلى مجلس السلطان «فيكون أول ما يفطر عليه ثريد فى صفحة صغيرة عليه العدس مسقى بالسمن والسكر ، ويقدمون الثريد تبركاً ويقولون أن النبى صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبى له» .

وأثناء الشهر الكريم واصل ابن بطوطة اشباع رغبته فى السفر والترحال فانتقل إلى مدينة «قل حصار» ، وسلطانها محمد جلبى وهو أخو سلطان أكريدور ، ومنها إلى مدينة «لاذق» التى كان الترك يسمونها «دون غزلة» أى بلد الخنازير . ربما لكثرة نصارى الروم بها وتربيتهم للخنازير .

وقد صدم ابن بطوطة فيما عاينه من إهمال أهل المدينة لتغيير المنكر حتى فى الشهر الكريم ، إذ لاحظ أنهم «يشترون الجوارى الروميات الحسان ، ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف (مال) لمالكها تؤديه إليه وسمعت هنالك أن الجوارى يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه ، وذكر لى أن القاضى بها له جوار على هذه الصورة» .

ولم يخفف من وطئة تلك الصدمة فى الفضيلة إلا تنازع الفتيان على استضافته هو ورفاقه .

والفتوة آنذاك تعرف بالأخيات وهى روابط مهنية ذات طابع صوفى ، ويعد نظام الفتوة بمثابة الحد الأعلى لطوائف الحرف التى عرفت فى ديار الإسلام ، وقد انتهى تنازع الفتيان إلى الاتفاق على أن يقيم ابن بطوطة لبعض الوقت مع أصحاب الفتى (أخى) سنان وينتقل للإقامة بعد ذلك مع أصحاب الفتى طومان ، وقد أفرط الجميع فى إظهار كرم الضيافة بتوفير الطعام والحلوى ومتعة الاستحمام فى حمامات الأخيات .

وحضر ابن بطوطة عيد الفطر بمدينة لاذيق ، ليحفظ لنا وصفاً دقيقاً هو الوحيد من نوعه لمظاهر الاحتفال بعيد الفطر المبارك فى بلاد الروم الأتراك .

ففى صبيحة يوم العيد خرج الناس إلى المصلى يتقدمهم السلطان فى عساكره والفتيان (الآخية) كلهم بالأسلحة . ومن أهم مظاهر الاحتفال التى عنى ابن بطوطة بوصفها بكل دقة موكب أهل الحرف والصناعات ، وهى ذات المواكب التى حرصت الدولة العثمانية على تسييرها فى الأعياد ليس فى استانبول فحسب بل وفى كل الولايات العربية التى خضعت لحكمهم ، ولا يكاد ما كان يحدث فيها يخرج فى كثير أو قليل عن السيناريو الذى سجله ابن بطوطة .

فيذكر الرحالة المغربى أن لأهل كل صناعة يشتركون فى الموكب «الاعلام والبوقات والطبول والأنفار وبعضهم يفاخر بعضاً ويباهيه فى حسن الهيئة وكمال الشكة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أولاً إلى المقابر ومنها إلى المصلى» .

وبعد أن فرغ الجمع من صلاة العيد ، دخل ابن بطوطة وصحبه ، وكانوا فى نظر أهل المدينة من الغرباء الواجب ضيافتهم ، إلى منزل السلطان ويعرف بالسلطان «ينـنج بك» وهو من كبار سلاطين بلاد الروم حسبما يذكر ابن بطوطة . ويسترعى الانتباه هنا اهتمام السلطان بضيافة الغرباء على ذات السماط الممدود للفقهاء والمشايخ والفتيان بينما أفرد للفقراء والمساكين سماط على حدة وقد امتدح ابن بطوطة همته فى ذلك العيد لأنه «لا يرد على بابه فى ذلك اليوم فقير ولا غنى» .

ومما استلفت نظر ابن بطوطة فى حكام الترك فى تلك الأصقاع أنهم اعتادوا «التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء» ويبدو أن ذلك قد ترك فيه أثراً بليغاً حيث اعتاد فى رحلاته المتعددة أن يقابله حكام المسلمين بأصناف الهدايا والصلات والعطايا حتى أنه كان يتزود فى أسفاره من عطاياهم ويشترى الجوارى الحسان والخيل المسومة دون أن يفتقد المال اللازم للانفاق فى حله وترحاله .

أما مدينة لاذيق التى أقام بها ابن بطوطة فى أواخر رمضان والأيام التالية لعيد الفطر ، فهى من أشهر مدن الترك بصناعة السجاد ولها شهرة واسعة فى انتاج أنواع باهرة من سجاجيد الصلاة الصغيرة .

ومما ذكره ابن بطوطة عن النشاط الاقتصادى بلاذيق أن أكثر الصناع بها من نساء الروم ، حلاف

لبقية مدن آسيا الصغرى فقد كان بها من الروم كثير تحت الذمة ، أى على النصرانية ، وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها . ورغم ذلك فإن بها سبعة من المساجد لإقامة الجمعة .

واختتم رحالتنا ملاحظاته بواحدة تتصل بأغطية الرؤوس ، وقد كانت آنذاك جزءاً من الملابس ، أحد أهم علامات التمييز بين الأجناس والطوائف والملل ، إذ يقرر أن «علامة الروم بها القلانس الطوال ، منها الحمر والبيض ونساء الروم لهن عمائم كبار» .

ثم ثنى ملاحظاته الختامية بالإشارة إلى اشتهار المدينة بصناعة «ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها ، تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها ، وهذه الثياب معروفة بالنسبة إليها» .

(((

ابن بطوطة فى خوارزم
رمضان ٧٣٣ هـ

دخل ابن بطوطة بلاد هذه الدولة الخوارزمية وهى فى عنفوان قوتها بآسيا الوسطى وحاكمها آنذاك هو السلطان المعظم محمد أوزبك خان ، وقضى فى مدنها أغلب أيام رمضان وحضر بها عيد الفطر أيضاً ، ولم يغادر خوارزم إلا لفترة محدودة زار خلالها إقليم «بلغار» فى الروسيا .

ومن تدويناته الأولى خلال هذه الرحلة ملاحظة ألمعية تناول فيها دأب القوم بمن فيهم السلطان على الترحال من موضع إلى آخر بحسب تغير الفصول ، إذ عندما وصل إلى موضع المحلة التى يقيم بها «محمد أوزبك خان» فى غرة رمضان وجد المحلة قد رحلت فعاد مرة أخرى من حيث جاء انتظاراً لاستقرارهم قرب مدينة الماجر على طريق «بش داغ» أى الجبال الخمسة . ويصف ابن بطوطة عاصمة السلطان المتنقلة عندما أقبلت المحلة فرآها مدينة عظيمة «تسير بأهلها فيها المساجد والأسواق ودخان المطبخ . صاعد فى الهواء وهم يطبخون فى حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم . فإذا بلغوا المنزل أنزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الأرض وهى خفيفة المحمل . كذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت» .

وقد أعجب ابن بطوطة بترتيبات السلطان محمد أوزبك فى سفره ، حيث كان ينتقل فى «محلة» خاصة به مع مماليكه وأرباب دولته ، ونفس الأمر بالنسبة لكل واحدة من زوجاته (خواتينه) الأربعة ، فإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن فى محلتها بعث إليها يعلمها بذلك فتتهيأ له .

وتحدث رجلنا مطولا عن كل واحدة من الخواتين مبتدئاً بأكثرهن حظوة لدى السلطان وهى الخاتون طيطغلى وهى حسبما سمع من العارفين بأخبارها من «سلالة المرأة التى يذكر أن الملك زال عن سليمان عليه السلام بسببها» وكان السلطان يفضلها عن قريناتها «للخاصية التى فيها وهى أنه يجدها كل ليلة كأنها بكر» . والخاتون الثانية اسمها كبك خاتون ومعنى اسمها بالتركية «النخالة» والثالثة هى بيلون بنت ملك القسطنطينة «تكفور» وقد رحل معها ابن بطوطة أثناء رحيلها إلى بلاد أبيها لتضع حملها ولكنها بقيت بالقسطنطينة ولم تعد . أما الرابعة فاسمها «أزدوجاً» ومعنى اسمها فى التركية «المحلة» لولادتها فى المحلة. وقد كان لكل واحدة منهن وزيرة (اولو خاتون) وحاجبه (كجك خاتون).

وفى اليوم التالى لحضور السلطان دخل ابن بطوطة إليه بعد صلاة العصر وقد جمع أوزبك خان المشايخ والقضاة والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد وضع طعاماً كثيراً ليفطر الجميع معه ومن بين

أصناف الطعام اللحوم المسلوقة من الغنم والخيل . وعندما أهدى ابن بطوطة طبقاً من الحلواء للسلطان جعل الأخير «أصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك» جرياً على عادة الترك آنذاك فى عدم أكل الحلواء ولو تحت التهديد بالموت أو الترغيب بالهدايا والمناصب . وكما هو حال الأتراك أيضاً فقد كان حكام «خوارزم» لا يعرفون إنزال الوارد ولا إجراء النفقة وإنما يبعثون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز (لبن الخيل) وتلك كرامتهم» .

وقد أسهب ابن بطوطة فى وصف مظاهر الاحتفال بعيد الفطر ، حيث ركب السلطان فى عساكره وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركب أيضاً الفقهاء والمشايخ والقاضى ولكن صحبه «تين بك» ابن السلطان وولى عهده ومعهم الطبول والاعلام ليصلى بهم القاضى «شهاب الدين» .

وبعد إنقضاء الخطبة ركب السلطان وانتهى إلى برج خشب يسمى «الكشك» تتابعت بعده أكشاك ولى العهد وبقية الأبناء والأمراء ، وجلس الجميع لمشاهدة «الرمى» وهى ذات خدمة الميدان التى عنى بها «المماليك الأتراك بمصر والشام ويعقب ذلك إهداء الخلع للأمراء .

ثم يعقب تلك المراسم نزول السلطان وحريمه وحواشيه إلى «باركة» وهى «بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب ومكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب» ويوضع على يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان ويفرش ذلك كله بفرش الحرير ثم يأتى الطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال على الأقل ، وأغلب الطعام من لحوم الغنم والخيل ويتولى «الباروجى» أى مقطع اللحوم خدمة موائد الامراء «ولهم فى ذلك صنعة فى قطع اللحم مختلطاً بالعظم فأنهم لا يأكلون منه إلا ما اختلط بالعظم» . (!!!)

ومن الطريف أن أول أيام العيد صادف يوم الجمعة ، وبقى الجميع بالمسجد فى انتظار السلطان الذى تأخر فى الحضور (!!!) وأخيراً جاء السلطان وهو يتمايل طرباً وتبسم للسيد الشريف وخاطبه ب «آطا» أى الأب !!

وكان ابن بطوطة قد غادر مملكة خوارزم خلال شهر رمضان لأيام معدودات بغرض السفر لمدينة بلغار لا لشئ سوى مشاهدة ما ذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وهى الظاهرة الجغرافية المعروفة فى صيف بلدان الشمال ، وقد وصلها ابن بطوطة فى رمضان هو وصحبه «فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء أثناء إفطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر أثر ذلك » .

وكان ابن بطوطة يتطلع إلى زيارة بلاد الشمال الاسكندنافى التى سماها بلاد الظلمة ولعل ذلك بسبب الضباب الكثيف بها ، وهى على مسافة أربعين يوماً من بلغار إلا أنه عدل عن رغبته «لعظم المؤونة وقلة الجدوى» . ورغم ذلك فقد أورد بعض ما سمعه عن هذه البلاد وعدة من الطرائف . فذكر أن السفر إلى بلاد الظلمة لا يكون إلا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار «فإن تلك المفازة فيها الجليد ، فلا تثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الأظافر فتثبت أقدامها فى الجليد».

وعد الكلاب بمثابة الأدلة لهذه الطريق ولذا كان المسافرون يطعمونها أولا حتى لا تفر منهم إذا ما رأتهم سبقوها إلى الأكل .

ويستفاد مما ذكره إن الاتجار مع بلاد الشمال كان يتم بأسلوب التجارة الصامتة ، تماماً كما كان الحال مع غرب افريقيا . إذ يقوم التجار بوضع ما حملوه «عند الظلمة» ، فإذا كان من الغد «عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فإن أرضى صاحب المتاع ما وجده إزاء متاعه أخذه وإن لم يرضه تركه ، فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم وتركوا متاع التجار ..

وقد علق ابن بطوطة على تلك الطريقة بأن الذين يتوجهون إلى هنالك لا يعلمون «من يبايعهم ومن يشاريهم أمن الجن هو أم من الإنس ولا يرون أحداً» .

واهتم ابن بطوطة بسرد أهم أنواع الفراء الواردة من بلاد الشمال وأثمانها أيضاً معتبراً أن أحسنها ذلك الخاص بحيوان «القاقم» وهى «شديدة البياض من جلد حيوان صغير فى طول الشبر وذنبه طويل يتركونه فى الفروة على حاله» ، أما السمور فهو أقل جودة من فراء القاقم الذى يصل ثمنه إلى ألف دينار ببلاد الهند .

وارجع سبب ارتفاع أثمان فراء الشمال وكثرة الطلب عليه إلى أن «خاصية هذه الجلود أنه لا يدخلها القمل» وإلى أن تجار فارس والعراق فضلا عن أمراء الصين كانوا يعتبرون إرتداءه من علامات الثراء والإمارة ، «فيجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفرواتهم عند العنق» .

وما أن انتهت احتفالات عيد الفطر بمحلة محمد أوزبك خان حتى شرع ابن بطوطة فى الانتقال إلى بقية مدن خوارزم مثل أكك وسردق وهى لا تبعد كثيراً عن «السرا» حاضرة سلطان خوارزم .

ابن بطوطة فى دهلى

بعدما دخل ابن بطوطة بلاد الهند قصد العاصمة دهلى ليقابل سلطانها ، ملك الهند والسند «أبا مجاهد محمد شاه بن السلطان غياث الدين تغلق شاه» . ولما لم يجد السلطان فى المدينة فقد سارع إلى التجول بالمدينة التى وصفها بأنها «مدينة كبيرة المساحة كثيرة العمارة» . وهى تنقسم إلى أربع مدن متجاورات متصلات أقدمها المسماة «دهلى» وهى «من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة» ويليها مدينة «سيرى» ثم «تغلق أباد» والرابعة تسمى «جهان بناء» . وذكر أن السلطان محمد شاه أراد أن يضم هذه المدن الأربع داخل سور واحد فبنى منه بعضاً وترك بناء باقية لعظم ما يلزم فى بنائه .

وقد دون ابن بطوطة مشاهداته فى الهند ومدنها المختلفة واستغرق جزءاً كبيراً من مدونات رحلته فى سرد ما شاهده بالهند من عجائب النباتات والحيوانات وأصناف البشر وما عليه الهندوس والبراهمة من عادات وطقوس شدت انتباهه بقدر ما أثارت تعجبه حيناً وسخطه أحياناً .

ويعد وصفه لطقوس احراق الزوجة لنفسها وفاء لزوجها المتوفى من أكمل وأفضل النصوص التى دونت فى العصور الوسطى عن هذه الطقوس ، وهو ينبهنا أولاً إلى أن «إحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب ، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفاً بذلك ونسبوا إلى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تكره على إحراق نفسها ..» .

وقد لاحظ أن الهنود الكفار يستأذنون الحاكم المسلم أولا قبل إجراء الحرق وصادف أن شاهد ابن بطوطة بنفسه عملية إحراق ثلاث من النسوة مات زجالهن فى إحدى المعارك ، فبعد أن أمضين ثلاثة أيام فى غناء وطرب وأكل وشرب كأنهن يودعن الدنيا أتت النساء إليهن من كل جهة فى صبيحة اليوم الرابع وعندئذ ركبت كل واحدة منهن فرساً وهى متزينة متعطرة «وفى يمناها جوزة نارجيل تلعب بها وأقاربها معها وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار وكل إنسان من الكفار يقول لها أبلغى السلام أبى أو أخى أو أمى أو صاحبى وهى تقول نعم وتضحك لهم» .

ويواصل ابن بطوطة وصفه الدرامى للحرق فيذكر أن النسوة بعد وصولهن إلى منطقة كثيفة الظلال بها قباب وصهريج ماء ، نزلن إلى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ما عليهن من ثياب وحلى فتصدقن به ثم أرتدين ثياباً من قطن خشن غير مخيط وذهبن إلى النار الموقدة وقد ازدادت توهجاً بالقاء زيت

الجلجلان عليها ووسط صخب الطبول والأبواق تتقدم المرأة نحو النار وقد حجبت بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها .

« فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف ، وقالت لهم وهى تضحك : أبالنار تخوفوننى ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة ، ثم جمعت يديها على رأسها خدمة (تحية) للنار ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطبال والأنقار والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الأصوات وكثر الضجيج » . ومن الطريف أن ابن بطوطة لما رأى ذلك كاد يسقط عن فرسه لولا أصحابه الذين تداركوه بالماء فغسلوا وجهه وانصرف قبل أن يشهد محرق بقية زميلاتها .

وقد اتفق لابن بطوطة أن صار قاضياً لدار الملك فى دهلى وهو ما أتاح له القرب من بلاط السلطان ليشهد ما يدور فيه من مظاهر الاحتفال بالمناسبات الدينية وما يحاك فيه أيضاً من دسائس ومؤامرات .

وأول ما سجله رحالتنا من ملاحظات تتصل برمضان فى الحاضرة دهلى هو حرص المسلمين الشديد على إقامة التراويح . ففى معرض حديثه عن «حوض الخاص» وهو خزان لمياه الأمطار على جوانبه نحو أربعين قبة يذكر ابن بطوطة أن أهل الطرب يسكنون حوله ، ويعرف موضعهم لذلك «بطرب أباد » ، ولهم «سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة » وكانت النساء المغنيات الساكنات بالسوق « يصلين التراويح فى شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤم بهن الأئمة وعددهم كثير ، وكذلك الرجال المغنون» .

أما ليلة العيد ، وما يليها من أيامه فقد أهتم ابن بطوطة بمايجرى خلالها من رسوم واحتفالات ملكية، بحكم وجوده فى منصب القضاء . وكما هى العادة فى عصر المماليك بمصر والشام كان سلطان دهلى يرسل بالخلع والملابس الجديدة فى ليلة العيد . لأرباب الدولة والأعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الأخبار حتى يتسنى لهم حضور احتفالات العيد صباحاً وهم فى أزهى حلة ، ويخرج السلطان صبيحة العيد ليركب واحداً من بين ستة عشر فيلا أعدت له وفوق كل منها شطر (راية) من «الحرير المرصعة بالجواهر ، قائمة كل شطر منها ذهب خالص وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر» .

وينطلق الموكب الرسمى صحبة السلطان راكب الفيل ، وبه العبيد والمماليك ، وقد تزينوا بالذهب والجواهر ، وكذا كبار رجال الدولة والقضاة «وكبار الأعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة .. كل واحد منهم على فيل وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين ، ويركب المؤذنون أيضاً على الفيلة وهم يكبرون».

ويستمر الموكب الذى تتشارك فيه طوائف الجند بأعلامها وطبولها حتى يصل السلطان إلى باب

المصلى فيقف على بابه ويأمر بدخول القضاة وكبار الأمراء وكبار الأعزة ثم ينزل السلطان ويصلى الامام ويخطب .

وبعد الصلاة تقام الاحتفالات بالقصر ، فينصب فى فنائه الكبير باركة (خيمة) كبيرة ، ويضع شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار ويجعل منها ثلاثة صفوف ، ويجعل بين كل شجرتين كرسياً ذهبياً عليه مرتبة مغطاة» .

ويجلس السلطان فى صدر الخيمة على سرير الملك «وهو من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبراً وعرضه نحو النصف من ذلك وكل قطعة يحملها جملة رجال لثقل الذهب .. ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان» . وبعد جلوسه ينادى الحجاب والنقباء بأصوات عالية : بسم الله ، يتقدم الناس للسلام عليه وأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء ثم يجلس الجميع إلى مائدة حافلة بالأطعمة ويوزع السلطان نقودا ذهبية على كل من للسلام عليه يأتي للسلام عليه، وتأتى هذه الدنانير من كل من بيده قرية منعم بها عليه يضعها فى صرة مكتوب عليها اسمه ويلقيها فى طست ذهب ليوزع السلطان منها وبعد الطعام يأتى أهل الطرب ، فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسبيات في تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للأمراء والأعزة ثم يأتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ويهبهن لإخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك .

وتتم هذه الاحتفالات بعد عصر أول أيام العيد فى إيوان القصر المعروف بالمشور وسط روائح البخور التى تنطلق من المبخرة العظمى «وهى شبه برج من خالص الذهب منفصلة فإذا أرادوا اتصالها وصلوها وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال . وفى داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون يوقدون العود القمارى والقاقلى والعنبر الأشهب والجاوى حتى يعم دخانها المشور كله . ويكون بأيدى الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صباً» .

وخلافاً لسائر بلاد الإسلام تستمر احتفالات عيد الفطر وكذلك عيد الأضحى لمدة سبعة أيام يتكرر فى اليوم الثانى منها ذات المظاهر الاحتفالية التى تمت فى اليوم الأول من طعام وغناء ورقص وفى اليوم الثالث يزوج السلطان أقاربه وينعم عليهم وفى اليوم الرابع يعتق العبيد ويؤجل عتق الجوارى إلى اليوم الخامس ، ثم يأتى في اليوم السادس ليزوج العبيد بالجوارى وفى اليوم السابع يكون ختام الاحتفالات باعطاء الصدقات لكل فقير يقصد القصر .

(((

ابن بطوطة فى جزر المالديف
أو ذيبة المهل

حط ابن بطوطة رحالة فى جزائر ذيبة المهل (جزر المالديف حالياً) قبل مقدم شهر رمضان بأيام قلائل ، قضاها جميعاً فى التنقل بين الجزر وملاحظة السلوك الاجتماعى لسكانها وما يزرعونه من أشجار ونباتات

واسترعى انتباهه كثرة المساجد الحسنة فى هذه الجزائر ، ومعظمها من الخشب وميل أهلها إلى النظافة والتنزه عن الأقذار حتى أن أكثرهم «يغتسلون مرتين فى اليوم تنظفاً لشدة الحر بها وكثرة العرق ، ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلنة وغيرها » ومن عادات أهلها أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه وحسبما يستفاد مما أورده ابن بطوطة فقد كان زيهم هو «الفوطة» المعروفة فى بلاد الهند واليمن ولكنهم لا ينتعلون فجميعهم «حفاة الأقدام من رفيع ووضيع» وسبب ذلك فيما يبدو أن أزقتهم «مكنوسة نقية تظللها الأشجار . فالماشى بها كأنه فى بستان» ومع ذلك كانت توضع عند أبواب الدور آنية الماء ليغسل فيها كل داخل إلى الدار رجليه قبل أن يمسحها بحصير غليظ من الليف عند الباب .

وفى هذه الجزر تزوج ابن بطوطة بعد قصة هى الغاية فى الطرافة إذ عرض عليه أحد وزراء الجزر ويعرف باسم «سليمان» أن يتزوج بابنته ولكن ابن بطوطة تطير منها لوفاة زوجين لها قبل أن يدخلا بها وعزم على الرحيل فطالبه الوزير بالهدايا التى أرسلها له وبالجارية التى وهبها له وكانت تعرف باسم « قل ستان» أى زهرة البستان وكانت تعرف الفارسية . وعندئذ لم يجد الرحالة الأديب مفراً من الإقامة وقبل على مضض الزواج بابنة الوزير فلما كانت ليلة الزفاف لم يحضر الوزير لأن العروس رفضت الزواج بابن بطوطة فحمد الله وقبل الزواج بإحدى سيدات القصر عوضاً عنها «فكانت من خيار النساء وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير» .

وكما حدث فى دهلى تولى ابن بطوطة القضاء فى ذيبة المهل ، فحاول قدر ما استطاع تغيير بعض عادات السكان التى كانت مترسخة فيهم من أيام الكفر وأصاب نجاحاً فى منع المطلقات من البقاء فى بيوت أزواجهن وإلزام أهل الأسواق بالتوجه إلى المساجد عند سماع الأذان . ولكنه فشل

فشلا ذريعاً فى منع النسوة من ترك صدورهن عارية ، وقنع منهن بتغطية هذا الجزء إذا ما أردن التقاضى فى مجلسه .

وثمة ملاحظة هامة اتحفنا بها ابن بطوطة وهى أن أهل هذه البلاد على مذهب مالك السائد فى بلاد المغرب لأن حاكم الجزيرة أسلم على يدى مغربى اسمه «أبو البركات البربرى» وكان حافظاً للقرآن الكريم . وتبعه أهل الجزيرة بعد أن نسب إليه دفعه لعفريت من الجن كان يضرب الجزيرة فى كل شهر وذلك بفضل تلاوته للقرآن عند شاطئ البحر .

ومثلما نجد الآن فى العديد من بلدان آسيا ، فقد كانت إمرأة هى التى تحكم الجزيرة وعد ابن بطوطة ذلك من عجائب الجزر وهى السيدة خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالى أما زوجها فهو الوزير عبد الله بن محمد الحضرمى . ونظراً لطرافة ذلك فى نظر مغربى مثل ابن بطوطة فقد اهتم بأن يورد نص الدعاء لها فى خطبة الجمعة . أن يقول الخطيب «اللهم أنصر أمتك التى اخترتها على علم على العالمين . وجعلتها رحمة لكافة المسلمين» .

عندما نزل ابن بطوطة إلى الجزيرة أخرج له نبات التانبول وماء الورد وذلك هو الكرامة عندهم وبعث الوزير إليه بكسوة وضيافة فيها الأرز والسمن وجوز النارجيل والعسل المصنوع منه فضلا عن مائة زلف ودعة للنفقة مقام النقود . وما هى إلا أيام قلائل حتى دخل شهر رمضان فأرسل الوزير فى طلب ابن بطوطة فوجد لديه «الامراء والوزراء ، وأحضر الطعام فى موائد يجتمع على المائدة طائفة .. وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والموز المطبوخ ويشربون بعده عسل النار جيل مخلوطاً بالأفاوية وهو يهضم الطعام».

ولم يكتف الوزير بذلك بل أعطى للرحالة المغربى داراً واسعة ليضيف فيها المسلمين الذين قدموا على الجزيرة وهم من «فقراء العرب والعجم وبعث له أيضاً . «خمساً من الغنم وهى عزيزة عندهم وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير «فبعث ذلك كله إلى دار الوزير فطبخ لى بها ، وبعث الفرش وأوانى النحاس» وأفطر الجميع بعد ذلك بدار السلطانة مع الوزير ولما كانت الوليمة معدة للمتصوفة الفقراء الواردين على «ذيبة المهل» إكراماً لابن بطوطة فقد حضرها الوزير وأرباب الدولة «وكان كل من يأتى من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمى بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها فأخذها الفقراء» .

وكان من أمرهم بعد تناول الافطار أن يجلس الجميع لسماع القرآن أولا ثم أخذ المتصوفة فى السماع والرقص على عادتهم «وأعدت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطأونها بالأقدام ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلوى إلى أن خمدت» .

ولما تم شهر رمضان بعث إليه الوزير بكسوة . وخرج الجميع إلى المصلى فى صباح يوم العيد» «وقد زينت الطريق التى يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى وفرشت الثياب فيها وكل من له على

طريقه دار من الأمراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النار جيل وأشجار الفوفل والموز ومد من شجرة إلى أخرى شرائط وعلق منها الجوز الأخضر» .

وأثناء مرور موكب الوزير يقوم أصحاب الدور بالقاء أثواب الحرير أو القطن على رجليه فيأخذها العبيد مع الودع (النقود) الذى يجعل على طريقه أيضاً ، ذلك كله والوزير سائر فى طريقه وفى رجليه النعل وجميع الناس سواه حفاة والأبواق والطبول بين يديه والعساكر أمامه وخلفه وجميعهم يكبرون حتى يصلوا إلى المصلى أما ملابس الوزير فهى «فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور» أى قطع من الحرير أو القماش .

وبعد الفراغ من الصلاة وخطبة العيد ركب الوزير «محفة» وقام الأمراء والوزراء برمى الثياب أمامه على عادتهم ، ودخل إلى القصر استعداداً للوليمة التقليدية . وفى القصر مدت الموائد بالطعام ثم الفوفل والتانبول (نباتات تزكى رائحة الفم وتساعد فى هضم الأكل) وبد ذلك أتى «بصحفة صغيرة فيها الصندل ، فإذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل» .

ومن الغريب أن نجد تأثيرات مصرية واضحة فى هذه الجزر البعيدة ، ليس فقط فى قصادها من المصريين أو الملابس المصرية (الفرجيات) التى تزيى الوزير بها فى يوم العيد بل وفى عادة أكل الأسماك المملحة فى أول أيام العيد وهى عادة مصرية شاهدها وعاينها المؤرخون والرحالة بمصر خلال العصور الوسطى وما زالت حية ماثلة للعيان إلى يومنا هذا ، فيذكر ابن بطوطة أنه رأى على بعض طعامهم يومئذ «حوتاً من السردين مملوحاً غير مطبوخ أهدى لهم من كولم وهو فى بلاد المليبار كثير» فأخذ الوزير سردينة وجعل يأكلها وابن بطوطة ينظر إليه ، فطلب منه أن يأكل واحدة لأنها أى السردينة ليست ببلاد ذيبة المهل فاعتذر ابن بطوطة لانها غير مطبوخة فرد الوزير بأن السردين مطبوخ، ولكن ابن بطوطة أصر على موقفه مؤكداً للوزير أن البلاد التى جاء منها يوجد بها هذا النوع من الأسماك .

ابن بطوطة فى مالى

قبل أن يضع ابن بطوطة عصا التسيار ويقر له القرار فى بلده طنجة ساقته الأقدار وولعه بالأسفار إلى مملكة «مالى» أكبر وأشهر الممالك الإسلامية التى تعاقبت على حكم غرب افريقيا المعروفة لدى المسلمين ببلاد السودان الغربى أو بلاد التكرور .

وقد وصل ابن بطوطة إلى هذه المملكة من مصر عبر السودان ونزل بمحلة «البيض» بمدينة مالى أى الحى الذى كان ينزل به العرب من مغاربة ومصريين ويمانيين وجميعهم فى عرف السكان الافارقة من البيض . وخلافاً لما لقيه ابن بطوطة فى معظم ديار الإسلام من كرم وبحبوحة العيش فقد لازمه سوء الحظ منذ الأيام الأولى لإقامته فى مالى . فبعد عشرة أيام من وصوله أرسلت له بنت عم السلطان «عصيدة تصنع من شئ شبه القلقاس يسمى «القافى» وهى عندهم مفضلة على سائر الطعام» ولما أكل منها هو وخمسة من رفاقه أصابهم المرض وتوفى أحدهم وأغمى على ابن بطوطة أثناء توجهه لأداء صلاة الصبح . عندئذ لجأ الرحالة المغربى إلى أحد جيرانه فى محلة البيض وكان مصرياً سائلاً إياه دواء مسهلاً «فأتى بشئ يسمى «بيدار» وهو عروق نبات . وخلطه بالأنسيون والسكر ولته بالماء فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة وعافانى الله من الهلاك ولكنى مرضت شهرين» .

وعند حلوله بمالى كان حاكمها هو السلطان سليمان «أو منسا سليمان» الذى وصفه بأنه «ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء» . ذلك أنه بعث إليه ضيافة مع رجال القاضى يصف ابن بطوطة مقدمها بطريقة لا تخلو من السخرية اللاذعة إذ جاءه ابن الفقيه عبد الواحد من داره مسرعاً حافى القدمين «فدخل على وقال : قم قد جاءك قماش السلطان وهديته . فقمت وظننت أنها الخلع والأموال. فإذا هى ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقرى مقلية .. وقرعة فيها لبن رائب ، فعندما رأيتها ضحكت وطال تعجبى من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشئ الحقير» .

ولما دخل شهر رمضان كان حنق ابن بطوطة على السلطان البخيل قد بلغ مداه فخاطب ترجمان السلطان المدعو دوغا «وهو من أفاضل السودان وكبارهم» واتفق معه على أن يفاتح منسا سليمان فى أمر إعراضه عن القيام بواجب الضيافة والكرم تجاه ابن بطوطة . «فجلس فى أوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له : إنى سافرت فى بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك أربعة أشهر ، ولم تضفنى ولا أعطيتنى شيئاً فماذا أقول عنك عند السلاطين» .

ولم يكن هناك أعجب من جرأة ابن بطوطة سوى إجابة منسا سليمان الذى زعم أنه لم يره أو يعلم

به . فقام القاضى وابن الفقيه وقد رأيا فى بخله ما يمس سمعتهم لدى الرحالة الشهير ، فردا عليه وقالا «إنه قد سلم عليك وبعثت إليه الطعام» فأسقط فى يده ، واضطر إلى أن يأمر له بدار أنزل بها ونفقة تجرى عليه» ثم أعطى القاضى والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة وأعطانى معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثا (من الذهب) وأحسن على عند سفرى بمائة مثقال ذهباً» ورغم فرحة ابن بطوطة بتلك الهدية الذهبية ، فإن المعروف لدى أهل ذلك الزمان أن بلاد السودان الغربى كانت هى المصدر الرئيسى لتبر الذهب . وكان بها رخيصاً حتى أنه يباع مقابل الملح وزناً بوزن .

أما رسوم منسا سليمان فى أول أيام عيد الفطر فهى لا تختلف كثيراً فى جوهرها عما شاهده ابن بطوطة فى سائر ديار المسلمين .

ففى الصباح خرج الناس إلى المصلى وهو قريب من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان» وفى هذا اليوم لبس السلطان «الطيلسان» . لأن أهل السودان (الغربى) لا يلبسون الطيلسان إلا فى العيد ماعدا القاضى والخطيب الفقهاء فأنهم يلبسونه فى سائر الأيام ولعل ذلك راجع إلى تأسيهم بحال أقرانهم فى مصر أثناء الحكم الفاطمى . خاصة وأن الفاطميين كانوا يسيطرون على الشمال الافريقى ويهيمنون على طرق التجارة مع بلاد السودان . ويسير الناس عند خروجهم للصلاة بين يدى السلطان وهم يهللون ويكبرون «وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخله السلطان وأصلح من شأنه ثم خرج إلى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة» .

وبعد انقضاء الصلاة وربما كان ذلك جرياً على عادة الدعاة الأولى فى تلك الاصقاع ينزل الخطيب ليلجلس أمام السلطان ويتكلم معه مطولاً «وهناك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه» .

وبعد إلى هذا الفاصل الخطابى الذى لم ير ابن بطوطة مثيلا له فى غير مالى يغادر منسا سليمان المصلى إلى الجلوس بقصره بعد صلاة العصر ، فيجلس على مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات وتسمى «البنبى» وحوله السلحدارية بأنواع السيوف والرماح والدروع والدبابيس وهى جميعاً محلاة بالذهب والفضة «ويقف على رأسه أربعة من الامراء يشردون الذباب وفى أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج» ويحضر هذا المجلس القاضى والخطيب والفرارية أى الأمراء . وفى الاحتفال بالعيد يقوم الترجمان «دوغا» بالعبء الأكبر ، إذ يأتى بنسائه الأربع وجواريه وهن نحو مائة «وعليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة» . وينصب له كرسى يجلس عليه ويضرب «آلة من قصب وتحتها قريعات» . ويغنى بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وأفعاله وتغنى النساء والجوارى معه ويلعبن بالقسى ، ويساعده فى هذا الغناء ثلاثون من غلمان يرتدون عباءات حمراء وعلى رؤوسهم «الشواشى البيض» وقد تقلد كل منهم طبلة يضرب عليها .

وبعد أن ينتهى «وغا» يأتى بعض الصبيان ليؤدوا بعض الحركات البهلوانية «ولهم فى ذلك رشاقة وخفة بديعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغا بالسيف لعباً بديعاً» ، وفى أعقاب ذلك يأمر السلطان لدوغا بمائتى مثقال من تبر الذهب (حوالى ٨٥٠ جراماً) ، ولا يعطى بقية الامراء (الفرارية) عطاياهم إلا فى اليوم التالى .

والواقع أن هذا الاحتفال الرسمى يشبه فى جانب منه (الانشاد ولعب الصبيان خاصة) ما كان يجرى فى البلاط الفاطمى بالقاهرة .

أما الاحتفالات ذات الطابع الشعبى وهى حسبما يذكر ابن بطوطة قديمة سابقة على الإسلام ، فتبدأ بعد انتهاء عروض دوغا ، ويؤديها شعراء شعبيون يعد شعرهم الذى يلقونه بمثابة وعظ للسلطان ، كأن يقولوا له «أن هذا البنبى الذى تجلس عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان وكان من أفعاله كذا ، فأفعل أنت من الخير ما يذكر بعدك» .

ولا يؤدى الشعراء دورهم هذا على طريقة الشعراء العرب بل على ذات النسق الافريقى الأسطورى ، إذ يدخل كل واحد منهم «فى جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق (طائر) وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق . ويقفون بين يدى السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم» . ويعقب فراغ الشعراء المختفين داخل هذه الهيئات الكاريكاتيرية صعود كبيرهم على درج البنبى ليضع رأسه فى حجر السلطان . ثم يصعد إلى أعلى «البنبى» فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر وهو يتكلم بحديث لم يفقهه ابن بطوطة أو يهتم بالاستفسار عنه ، ويكون نزوله إيذاناً بانتهاء احتفالات سلطان مالى بأول أيام عيد الفطر .

العياشى فى القاهرة
١٠٧٢هـ

هو عبد الله بن محمد بن أبى بكر العياشى (نسبة إلى إحدى قبائل البربر) وقد زار مصر غير مرة وهو فى طريقه للحج ضمن قافلة الحج المغربى . وقد ترك لنا مذكراته فى رحلاته للحج وهى التى نشرت باسم الرحلة العياشية . وإن لم يهتم بإيراد أى ملامح للحياة الاجتماعية فى البلاد التى مر بها من الجزائر إلى طرابلس الغرب مكتفياً بتسجيل ملاحظاته اليومية فى القاهرة وبلاد الحجاز .

وفى رحلته الأخيرة إلى مصر عام ١٠٧٢هـ (١٦٦٢م) . أحصى العياشى مدة سفره من «مصراته» إلى بر إمبابة على الضفة الغربية للنيل ، فوجدها خمسين يوماً منها خمسة أيام إقامة والباقى قضاها فى السفر . وقد وصل صحبة بعض حجاج المغاربة الذين لم يأبهوا لأخبار الطاعون الذى اجتاح مصر . ونزل الجميع خارج إمبابة «فى يوم الأحد الخامس والعشرين من رمضان» .

ويدخل مادونه العياشى عن محطته الأولى بمصر فى عداد انبهار مسافر الصحراء الجرداء بخصب وادى النيل ووفرة الغذاء الرخيص فى قراهالمتصلة العمران دون إنقطاع حتى أنه يذكر أن الناس (أى قافلته) قد تسارعوا لشراء الفاكهة واللحم «لبعد عهدهم بذلك» .

ويقص العياشى إمبابة فى إحدى سنوات إنخفاض فيضان النيل بأنها «مدينة على ساحل النيل لها أسواق ووكائل ومساجد على هيئة ما فى القاهرة وهى فى الجانب الغربى فى مقابلة مدينة بولاق بالجانب الشرقى . وأقمنا بها يومنا فى أرغد عيش شبعاً ورياً وكيف لا ونحن على ساحل النيل الذى هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة وأثر بركته ظاهر للعيان فى مائه وترابه وقراه ومدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصباً مع اتصال العمارة نحو الشهر» .

ويقصى العياشى فى رحلته أن عادات الفلاحين فى قرى النيل (غربى الدلتا والوادى) أن يخرجوا لملاقاة حجاج المغاربة ليتخذوا منهم الأصحاب حتى يودعوا عندهم الإبل ويتركوها «أمد الإقامة طلوعاً ورجوعاً» .

وفى السادس والعشرين من رمضان تحرك العياشى ورفاقه من إمبابة قاصدين ميناء القاهرة النيلى (بولاق) فهاله أن «وجد النيل فى غاية ما يكون من النقصان وقد انحسر الماء عن بقاع كثيرة فى وسطه» وكان قد عاين قبل ذلك بأيام قلائل ارتفاع الفيضان حتى أغرق الطرق بين بعض قرى الدلتا . وهذه الظاهرة كثيراً ما يتكرر وصفها فى كتب مؤرخى العصور الوسطى حين يقولون «وطلع

مد النيل ثم انحط سريعاً » .

وعند وصوله إلى بولاق اكترى العياشي وحجاج المغاربة ثلاثة من الإبل العجيبة » وإن حمل ... ذلك على الحمالين لقسوتهم عليها . « وقد سخر الله تعالى الإبل لهم ونزع الرحمة من قلوبهم يحملون عليها القناطير المقنطرة من الأمتعة وأحمال الذهب والتبر وغير ذلك حتى لا يظهر من الجمل إلا رأسه » .

وفى القاهرة لاحظ العياشي أن الوباء فاش فيها كما أبلغت قافلة الحج المغربي ولكنه « ضعيف حيث كان يصلى فى الجامع الأزهر كل يوم على عشرة » من الموتى فقط !! ولم يستطع الرحالة المغربي أن يحقق أمنيته بالإقامة قرب الجامع الأزهرلانشغال الدور بالحجاج من الشمال الافريقى وقد كان أحرص الناس على الاحتفاء برمضان في الأزهر . فطرح أمتعته هو وأصحابه « بوكالة قايتباى (لعله يقصد وكالة الغورى) بباب الأزهر الغربى وجعلنا نتطلب داراً للسكنى فما وجدنا إلا آخر النهار بمحل يقال له البردبكية وجدنا هناك داراً واسعة فيها عدة مساكن إلا أنها بعيدة عن الأزهر بنحو أربعمائة خطوة قريبة من مشهد الحسين رضى الله عنه » .

ورغم أن العياشي ورفاقه قد جهدوا أنفسهم طيلة النهار فى البحث عن هذه الدار وحملوا إليها أمتعتهم بل ودفعوا أجرة سكنها مقدماً وكانت ثلاثة وسبعين ونصفاً من الفضة . إلا أنهم باتوا تلك الليلة بالجامع الأزهر لأنها ليلة السابع والعشرين من رمضان وقد لاحظ أن « كل الليالى بذلك المسجد كليلة الفرد لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم أناء الليل وأطراف النهار ولا تنقطع منه العبادة ليلاً ولا نهاراً ولا صيفاً ولا شتاء فهو عديم النظر فى مساجد الدنيا بأجمعها حاشا المساجد الثلاثة لما لها عند الله من أعظم المزايا » وهو يعنى بذلك المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى .

ولما كان رمضان هو شهر القرآن وفيه يقبل الناس على قراءته وتجويده فقد هب العياشي لزيارة « شيخ القراء بالقاهرة ورئيس أهل التجويد بلا مراجعة الشيخ سلطان » وقد سلم الشيخ عليه ودعا له وكان ذلك هو غاية ما أراده العياشي وقصاد الحج المغاربة من تلك الزيارة .

ومن الملاحظات الطريفة التى أوردها العياشي وهو يصف سلطان شيخ القراء أن فى خلقه ... حتى أنه لا يترك أحداً يقبل يده . وإذا ما ألح أحد فى طلب الدعاء منه « انتهره ويمضى ويتركه ... يحتمل للطلبة الذين يقرأون عليه أدنى غلطة تقع منهم بل يبالغ فى التفريغ والتوبيخ بل ربما زاد إلى الشتم .. والناس يحتملون ذلك منه لانفراده بذلك مع تقشفه وورعه وصبره على ملازمة وظائف العبادة » .

ويسجل العياشي فى ندم وأسى أنه لم يحضر إلى الأزهر فى يوم التاسع والعشرين من رمضان لأسباب ثلاثة أولها لبعد منزله عن المسجد وتلك واحدة من الغرائب إذ استكثر الأربعمائة خطوة وهو الذى سار فى الصحراء خمسة وأربعين يوماً دفعة واحدة من مصراته إلى مصر . والسبب الثانى ...

لحقه من الكسل بسبب الصوم .

أما السبب الثالث فكان ذلك اللغط الذى ثار فى القاهرة حول تعيين أول أيام العيد . فقد أشيع ما ذكره البعض نقلاً عن المنجمين المعدلين بالقاهرة فى ذلك اليوم «بأن الهلال يرى ليلة الثلاثين فيكون الشهر تسعاً وعشرين .. وانتشر ذلك فى الناس واعتقدوه حتى قيل أن الباشا طلب من قاضى العسكر الحنبلى أن يحكم بذلك فأبى جزاه الله خيراً وقال لا حكم حتى يرى الهلال» .

وبالفعل صعد قاضى الشافعية مع الشهود العدول فى ليلة الثلاثين إلى أعلى المئذنة ويعنى بذلك مئذنة المنصور قلاوون بالنحاسين وبقى الجميع فوقها من قبيل الغروب حتى انتشر الظلام «فلم يروا شيئاً فأوقدوا المصابيح فى المئذنة كما هى عادتهم فى ليالى الشهر كلها فعلم الناس أن الغد من رمضان وكذب الله أقوال المنجمين» .

وبعد أن أتم العياشى صيام رمضان بالقاهرة نجده يجرى على عادة المصريين فى الخروج لزيارة المقابر ، فيخرج عشاء إلى القرافة الصغرى ، ولكنه لم يستكمل مراده من الزيارة فعاد للقاهرة لشدة الحر من ناحية ، ومن ناحية أخرى «لكثرة الزحام بالمقابر لأن عادة نساء مصر أن يخرجن ليلة العيد ويومه إلى المقابر ويبقين هنالك برهة من الزمان» ورغم أن العياشى قد ذهب إلى القرافة بغرض الزيارة والتبرك بمقابر الأولياء والمعتقدين إلا أنه لم يجد أى غضاضة فى أن يصف عادة المصريات بأنها «عادة مذمومة فى سائر الأيام فما بالنا بيوم العيد إنه يوم أكل وشرب ومرح وسرور وزيارة القبور تذكر بالآخرة وتثير فى القلب حزناً» .

ولم يفت العياشى أن يصف لنا ما يجرى بالقاهرة فى أول أيام العيد وخاصة تبكير الناس بالذهاب إلى صلاة العيد وقد حضرها العياشى فى الجامع الأزهر حيث خطب الخطيب «خطبة حسنة جلها فى أحكام زكاة الفطر» . وبعد فراغ الناس من الصلاة والخطبة أخذوا يتزاورون ووقف المشايخ لزيارة الناس وقابل العياشى العديد من المغاربة الذين يتلقون العلم بالأزهر .

وعندما ذهب الرحالة المغربى صحبة رفاقه لزيارة الشيخ إبراهيم الميمونى قدم لهم «كعكاً حسناً» وتلك عادة مصرية تعود إلى العصر الفاطمى على أقل تقدير وما زالت مرعية إلى اليوم . وقد ظن العياشى أن فى ذلك مخالفة لعادة الروم من أهل مصر الذين «يتكارمون بينهم بشراب البن الذى يسمونه القهوة» ولعله فى ذلك لم يفرق بين تقاليد يوم العيد والعادات اليومية .

وقد انتهز الرحالة المغربى فرصة الحديث عن القهوة ليبين أنها فى بلاده «ليست بطعام ولا دواء ولا شهوة» وأنها أيضاً موضع جدل عنيف فى المجتمع المصرى وقد انقسم العلماء فى شأنها بين التحريم والإباحة وعزز كل فريق حججه بالنظم والنثر وإن كان «أكثر العلماء مائلين فيها إلى الإباحة وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم فى المطاعم والمشارب زاعمين أنها تعين على السهر فى العبادة ويستعين بها الطلبة كثيراً فى المطالعة الليلية ولا شك أنها تزيل ما يحصل فى الرأس من

تدويخ بسبب السهر أو خلو المعدة صباحاً فإذا شربها الإنسان وجد فى أعضائه نشاطاً» .

ومع معارضته الظاهرة لشرب القهوة فقد أشار العياشى إلى وجود مقاه عامة يعد فيها شراب البن الذى ذاع وانتشر فى القاهرة لفوائده التى ذكرها فضلاً عن ميل الناس لتقليد الأمراء فى شربها .

وآخر ما عاينه العياشى من مظاهر الاحتفال بعيد الفطر بالقاهرة كانت تلك العروض المفتوحة التى كانت تجرى أسفل القلعة (ميدانها الحالى) ويشارك فيها المشعوذون والبهلوانات الذين يسيرون على الحبال «ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب» . ويعقب على ذلك فيقول «وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زائد وحيل عريبة قد سخرت لهم أنواع الحيوانات فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخراً» .

جيرار دى نرفال فى استانبول

« جيرار دى نرفال » . رحالة فرنسى تنقل بعيد الثلث الأول من القرن الماضى بين بعض ولايات الدولة العثمانية ، وذلك أثناء حكم السلطان عبد المجيد ، ودون مشاهداته فى مجلد ضخم أسماه « رحلة إلى الشرق » .

وحضر نرفال فى استانبول شهر رمضان من عام ١٢٤٩ هـ (١٨٣٣م) . ودون فى كتابه بعض ملاحظات متفرقة نستنتج منها أن حاضرة الدولة العثمانية كانت شديدة الاحتفاء والاهتمام بمقدم الشهر الكريم مراعية لحرماته فى الغالب الأعم ، رغم أنها تضم حسبما يذكر نرفال « أربعة شعوب مختلفة تعيش فيها دون أن يكون كرهها بعضها للبعض كبيراً ، فالأتراك والأرمن واليونانيون واليهود . أبناء أرض واحدة ويتحملون بعضهم البعض أكثر مما يتحمل فى بلادنا (فرنسا) أبناء المقاطعات المختلفة أو أفراد الأحزاب المختلفة بعضهم البعض» . أنه من المثير حقاً أن تلتزم هذه المدينة الحافلة بأصناف البشر من كل حدب وصوب وديانة بتقاليد رمضان رغم أن كل مظاهر الحياة فيها كانت تنبئ عن توجهها شطر الغرب الأوروبى تستلهم منه قشور الحضارة الاستهلاكية حتى من قبل أن يجعل أتاتورك من هذا التحول التاريخى حقيقة سياسية . فلقد شاهد الفرنسى ليلة الرؤية ، مدينة استانبول وهى ترفل فى أضواء مأذن المساجد وقبابها احتفالا برؤية هلال رمضان ، وعندما أطل عليه صباح أول أيام الشهر كانت المدينة ، مثل مدن الشرق جميعها ، قد أغلقت كل حوانيتها ، بما فى ذلك حوانيت غير المسلمين الذين لم يجدوا من يبتاع شيئاً منهم فى الأوقات المبكرة من النهار ، وشتان الفارق بين مارآه نرفال فى آخر أيام شعبان من حركة فى الأسواق ، وما صدمه من سكون فى أول رمضان ، حتى أن السوق المصرية التالية لسوق السمك كانت مغلقة إغلاقاً محكماً رغم أن سلعها تقتصر على التوابل والأصباغ والمنتجات الكيميائية . وفى مبالغة أدبية يلخص نرفال حال طرقات استانبول فى أنها « لم يكن يسكن الطرقات إلا الكلاب وقد أدهشها خلال الأيام الأولى من رمضان أنها لم تعد تتلقى غذاءها اليومى من حانوت مجاور للسوق يشغله أرمينى» . وقد تناول نرفال طعام الغداء فى حانوت هذا الأرمنى الذى اشترى طعامه منذ المساء وإلا كان اضطر للعودة إلى حى بيرا حيث يسمح بإقامة الأجانب للحصول على الطعام .

ويذكر نرفال أنه تحايل للإقامة فى استانبول ليشهد احتفالات ليالى رمضان ، فتنكر فى زى تجار الفرس ونزل بتوصية من صديق له فى خان ييلدز (النجمة) وكان يستقبل خليطاً من تجار آسيا «ومنهم المجوس والكوريون والوهابيون مما يكون خليطاً من اللغات يستحيل على الأتراك معرفة إلى

أى جزء من الشرق ينتمى هؤلاء» .

وفى هذا الخان لقى الفرنسى المتنكر من كرم الضيافة الشرقى الكثير ، إذ كان يسمح له بتناول الطعام وشرب القهوة أثناء النهار ، وحينما كان يحل المساء «كان الإيرانيون الذين كانوا كالأتراك ينامون سحابة اليوم ليستطيعوا الاحتفال بكل ليلة من ليالى رمضان يصحبوننى معهم لمشاهدة الاحتفالات المستمرة التى تدوم ثلاثين يوماً» .

وليالى رمضان فى استانبول هى على النقيض من أوقات النهار فالشوارع كلها مزدحمة بالحركة غاصة بالأطفال والنساء أكثر مما تزدحم بالرجال لأن هؤلاء كانوا يقضون أغلب وقتهم فى المساجد والمقاهى . وكانت جميع الحوانيت مفتوحة مزينة بالأكاليل وأصص الزهور ومزادنة من الداخل بالمرايا والشموع ، وكانت البضائع مزينة فى فن ، والمصابيح الملونة تتدلى من الخارج .

أما الطعام الذى يختفى من أيدى المارة نهاراً . فكان يملأ الطرقات ليلاً ، إذ تزدحم الطرقات ببائعى الفطائر والمقليات والفاكهة وسنابل الذرة المسلوقة وكذلك «بائعى البقلاوة وهى نوع من الكعك المشرب بالكثير من السمن والسكر يحبه النساء بصفة خاصة» .

وتماماً . كما هى الحال فى أغلب مدن الشرق . كانت ليالى رمضان تجمع بين العبادة واللهو ، وفى تلك الأخيرة أحتل القراقوز المكانة الأولى فى تسلية السكان وقد أهتم نرفال بالدخول إلى أحد عروض «هذه الدمية الغريبة المسماة بالقراقوز» فى أحد مسارح خيال الظل فى ميدان سراسكبيه . وشاهد عرضين أولهما بعنوان «قراقوز ضحية خيانة» وهى تتحدث عن أحد الجنود الأتراك ترك زوجته الجميلة ليرعاها قراقوز فى أثناء غيابه ، وحدثت بسبب ذلك سلسلة من المطاردات الغرامية التى قامت بها الزوجة فى حين نجح القراقوز فى الوفاء بعهده للزوج بعد سلسلة من الحوادث الطريفة التى قابلته .

أما العرض الثانى فهو بعنوان «زوج الأرملتين» وهى مسرحية هزلية تهريجية يسمونها «تقليد». وتدور أحداثها حول أن القراقوز أراد الزواج بأرملة أحد الضباط ولكنها اشترطت عليه أن يتزوج أيضاً «بضرتها» لتتمكن من أغاظتها كما فعلت تلك الضرة معها سابقاً أثناء حياة زوجها المتوفى . ولكن قدوم الزوج الذى كان أسيراً لدى الروس وقيد خطأ فى سجلات الموتى ، ينقذ القراقوز من موقفه الحرج ويغلق الستار وجميع شخوص العرض تنهال ضرباً على المأذون وسط التصفيق الحماسى الشديد من المشاهدين .

وإلى جانب عروض خيال الظل فقد كان الإيرانيون من جيران نرفال فى خان النجمة يصحبونه معهم إلى مقاهى استانبول بوصفه طالب علم ، وكانوا يذهبون إلى المقاهى الواقعة خلف مسجد بايزيد والتى كان يجتمع فيها قبل رحلته إلى الاستانة مدخنو الأفيون . وفى تلك المقاهى أدرك الرحالة الفرنسى مدى ما تتسم به ليالى المدينة من سحر بفضل تلك الروايات الرائعة التى يقصها الروادة أو

يرتلونها فى أهم مقاهى استانبول . ففى تلك المقاهى جلس نرفال مع الرواد ليشرب النرجيلة أو الشبك ، ملاحظاً أن وجود ورش صاهرى المعادن والنقاشين والحفارين الذين يصنعون أو يصلحون الأسلحة الجميلة قد أضفى على المقاهى جواً شعبياً دون أن تبدو على المقاعد هنا وهناك بعض الملابس المتأنقة .

ولما كان الراوى الذى استمع له نرفال وهو يقص حكاية «ملكة الصباح وسليمان أمير الجن» . من بين مشاهير الرواة فقد كان الازدحام كبيراً على المقهى ، وظل اللغط شديداً حتى طلب إلى الناس أن يلوذوا بالصمت . ثم أتى الراوى وهو «شاب ذو وجه شاحب وملامح غاية فى الدقة ونظرة ملتهبة وشعر طويل يتدلى من تحت غطاء رأسه وبعد أن شرب القهوة أخذ فى رواية قصته شعراً . ويبدأ الراوى بعبارة «الحمد لله ولصفيه أحمد الذى تضئ عيناه بنور جميل . أنه نبى الحق والوحيد» فيرد عليه الرواد «آمين» ويكون ذلك بمثابة تمهيد لبدء القصة .

وقد حدث لنرفال فى خلال هذا الشهر ما يستحق الذكر لطرافته . فعند ذهابه إلى أحد المقاهى قام أحد الأشخاص وهو «باشا إسكودار» بتحية الحاضرين ببعض المرطبات والقهوة ، وناول القهوجى الحاضرين تلك المشروبات باستثناء نرفال المتنكر فى زى تجار الفرس ، فلما نبه أحد الحضور القهوجى لذلك أجابه قائلا «لن أكون أبداً كافراً» ، ويقول نرفال أنه لم يخطر بباله أن هذا الرجل وهو بلا شك مسلم من السنيين لا يوجه إهانته إلا للباس الإيرانى الذى كان يرتديه ، إذ عندما عرف القهوجى أنه فرنسى عاجله بالمرطبات .

أما الواقعة الثانية فتتصل بجولة قام بها نرفال فى الحوانيت التى تبيع المياه المجلوبة إلى القسطنطينية من بلاد عديدة وفى سنوات مختلفة مثل مياه الفرات والدانوب وإن كان أهمها مياه النيل لأنها المياه الوحيدة التى يشربها السلطان . ففى نهاية هذه الجولة توقف نرفال أمام واجهة أحد المحلات وكانت تحوى قنينات لامعة بها سائل يبدو أنه عصير الليمون ويذكر أنه ابتاع واحدة منها بقرش تركى «وما أن رفعته إلى فمى حتى اضطرت إلى لفظ الجرعة دون ابتلاعها وضحك البائع من سذاجتى وكان لابد من العودة إلى يبلدز خان لأجد مشروباً أحسن طعماً» .

حدثت هذه الواقعة الغريبة لنرفال فى ليلة العيد ، فظل محتفظاً بالقنينة حتى التقى ببعض النسوة من اليونانيات والأرمن وسألهن عما بها فإذا بهن ينفجرن فى ضحك هستيرى دون أن يعطينه جواباً شافياً . ثم عرف فيما بعد أنه مشروب مقو يلجأ إليه الأزواج من كبار السن فى ليلة العيد .

ويكفى أن نستخلص من عبارات نرفال وهو يتحدث عن أمسية عيد الفطر ، مدى ما وصل إليه التأثير الأوروبى على سلوك العثمانيين وتعايش ذلك جنباً إلى جنب مع الحرص على أداء الصلوات فى أوقاتها .. يقول الرحالة الفرنسى «إن عيد الفطر لدى الأتراك يشبه عيد رأس السنة عندنا . فإن الحضارة الأوروبية التى نفذت شيئاً فشيئاً إلى عاداتهم قد جذبتهم شيئاً فشيئاً فيما يختص

بالتفاصيل المتفقة مع دينهم ، وهكذا فإن النساء والإطفال يشغفون حباً بالتحلى بالزينات والكماليات واللعب القادمة من فرنسا أو ألمانيا » .

وفضلاً عن ذلك فقد كان علية القوم من الأفندية يتزاحمون على محل «مدام مونييه» الفرنسية لشراء الحلوى الباريسية .

ورغم ذلك التأثير الأوروبى الدامغ فقد اختفى جميع الأتراك فى لحظة واحدة «من المحل حاملين لفائفهم كما يختفى الجنود حين تدق ساعة الانسحاب لأن الوقت كان قد حان لأداء إحدى الصلوات التى يؤدونها ليلاً فى المساجد» .

وقد عاين نرفال فى نهاية الليل استعدادات قصر السلطان للاحتفال بعيد الفطر حيث تحركت قوات الجيش وأقيم سياج بين إسكى سراى محل إقامة السلطانة الأم والسراى الكبيرة الواقعة فى الطرف البحرى فى استانبول ، وزعم الرحالة أن السلطان كان سيحتفل بالعيد عن طريق الزواج من إحدى الجوارى ؟!!

☾ ☾ ☾

البغدادى فى مصر

موفق الدين عبد اللطيف البغدادى . طبيب عالم ورحالة موصلى الأصل بغدادى المولد ولد حسبما يذكر فى ترجمته لنفسه بدار جدة فى درب الفالوذج ببغداد سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢م) . ثم أخذ فى تلقى العلوم المختلفة بالمدرستين الظفرية والنظامية ببغداد . ويقول عبد اللطيف فى سيرته عن نفسه «ولما كان فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبى ويملأ عينى ويحل ما يشكل على دخلت الموصل ..» وبذا بدأ البغدادى ترحاله الطويل متنقلا فيما بين دمشق والقدس والقاهرة وحلب وبلاد الروم ومنغوليا حتى عاد إلى بغداد ليموت ويدفن بها فى سنة ٦٢٩هـ بعد غياب عن بغداد طال إلى خمس وأربعين سنة . وقد ضمن البغدادى مشاهداته فى بر مصر فى كتابه الشهير «الإفادة والإعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» . وانتهى من تأليفه حسبما يذكر هو بالقاهرة «فى رمضان سنة ستمائة» .

وفى حضوره إلى مصر حمل البغدادى خطاب توصية من القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى أشهر كتاب الدولة الأيوبية آنذاك ووزير صلاح الدين الأيوبى . ودفع الخطاب إلى وكيل القاضى «ابن سناء الملك» فجاءه فى الحال إلى الخان الذى نزل فيه وقدم له داراً وقدم له دنانير وغلة ثم مضى ابن سناء الملك إلى أرباب الدولة وقال هذا ضيف القاضى الفاضل «فدرت عليه الهدايا والصلات من كل جانب حتى أصبح من المثرين» ثم عرض وكيل القاضى الوظائف على عبد اللطيف فاختار منها مسجد لؤلؤ الحاجب الواقع بالقرافة لتدريس الطب والفلسفة والرياضيات .

ولم يلبث البغدادى أن ذهب إلى القدس لملاقاة صلاح الدين الأيوبى . الذى توفى فى عام ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) فاضطر للإقامة بدمشق حتى جاء العزيز عثمان بن صلاح الدين بعساكره من مصر وحاصر أخاه الأفضل بالشام وعند رجوعه إلى القاهرة أخذ معه عبد اللطيف وعينه أستاذاً بالجامع الأزهر لتدريس الطب والفلسفة واستمر على ذلك حتى توفى الملك العزيز فى عام ٥٩٥ هـ . ومد إقامته بالقاهرة حيث حضر المجاعة الكبرى التى داهمت مصر وأعقبها الفناء الكبير . وفى تلك الفترة ألف البغدادى كتابه «الإفادة والإعتبار» .

وتعكس فصول الكتاب مدى تقلب الأحوال أبان إقامته بمصر ، إذ أوحى إليه رغد العيش فيما قبل مجاعة عام ٥٩٧ هـ أن يكتب عما فى مصر من نباتات وحيوان وآثار مصرية قديمة ومبان معاصرة. ثم داهمته المجاعة ووباء الطاعون فأفرد فصلاً عن أحداثها التى امتدت من شهر رمضان

عام ٥٨٩هـ ولم تضع أوزارها إلا فى شهر رمضان من عام ٦٠٠هـ والذى انتهى فيه من تأليف كتابه.

ولما كان النيل كما استبان للبغدادى هو محور حياة المصريين ومناط عيشهم فقد أهتم بالحديث عن هذا النهر ومجراه ومواسم فيضانه ومنابعه ثم تطرق إلى أرض مصر وأشكال تربتها وسبب خصوبتها وأعتبر أن ذكاء المصريين وتوقد أذهانهم وخفة حركاتهم عائد لحرارة بلدهم الذاتية لأن رطوبته عرضية.

وبتمكن المتخصص فى علم النباتات اهتم البغدادى بالحديث عن أنواع النباتات التى عد مصر متفردة بها أو متميزة فى إنتاجها وإن جنح فى بعض الأحيان إلى إثبات أقوال العامة دون كبير تمحيص أو تدقيق كقوله بأن «شجر الموز فى الأصل مركب من قلقاس ونوى النخل» .

أما حديثه عن الأطعمة التى يحتفى بها المصريون فى المواسم مثل رمضان فيعد تسجيلاً دقيقاً لما كان عليه حال المطبخ المصرى وإن ذكر أن أهل مصر من العوام «قلما يعرفون شيئاً من ذلك وأكثر أغذيتهم الصير (السمك المملح) .. والجبن ونحو ذلك وشرابهم البوزة وهو نبيذ يتخذ من القمح ومنهم (العوام) أصناف يأكلون الفار المتولد فى الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسمونه سمانى الغيط» .

ومن بين الأغذية والأطعمة التى ذكرها النيدة «وهى بمنزلة الخبيص حمراء إلى السواد وهى حلوة لا فى الغاية وتتخذ من القمح » . وذكر أن المصريين يتخذون الدجاج بأصناف من الحلويات وسبيل ذلك أن يسلق الدجاج ويرمى فى الجلاب (ماء الورد) ويلقى عليه بندق مدقوق أو فستق أو خشخاش أو برز رجله (ضرب من الحمص) أو ورد ويطبخ حتى ينعقد ثم يتبل ويرفع وتسمى هذه الأطبخة بالفستقية والبندقية والخشخاشية والوردية وست النوبة للتى تعقد ببزر الرجلة لسوادها » .

ولكثرة مايصنع من الحلويات المتخذة من السكر . وهى الشائعة فى رمضان .فقد أكتفى البغدادى بالإشارة إلى استخدامها فى التداوى من أمراض المعدة وأضرب عن ذكرها لكثرة أصنافها حتى أنها تحتاج على حد تعبيره إلى كتاب خاص .

واختتم حديثه عن الطعام بتفصيل طويل ودقيق لكيفية طبخ «رغيف الصينية» وهى أكلة تتألف من طبقتين من عجين الخبز بينهما خراف مشوية ومحشوة باللحم المدقوق ومعها فراريج وحمام متبلة جيمعها ومزودة بالفستق واللوز .

ومن حديث الرغد إلى حديث القحط فى عام ٥٩٧ هـ .انتقل البغدادى صادماً القراء . فذكر أن سنة سبع (٥٩٧ هـ) دخلت «مفترسة أسباب الحياة وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد » .

وفى تلك السنوات العجاف شهد البغدادى شهر الصيام فيما ليس له عهد به طوال إقامته السابقة

في مصر . فمن أطعمة رمضان والحلوى إلى أكل الجيف ولحوم البشر يقول البغدادى فى رمضان سنة ٥٩٧ هـ «ووحد فى رمضان بمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم فأكل وبقى قفصاً كما يفعل الطباخون بالغنم . ومثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من آثر الإطلاع على علم التشريح» وهكذا لم ينس عبد اللطيف مهنته كطبيب فى مثل هذا الموقف المأساوى.

ويواصل البغدادى حديثه عن تعلق الفقراء فى رمضان بأكل بنى آدم حتى أن الناس كانوا يتناقلون أخبارهم «ويفيضون فى ذلك استفظاعاً لأمره وتعجباً من ندرة وقوعه ثم أشتد قرمهم (اشتياقهم) إليه وضراوتهم عليه بحيث أتخذوه معيشة ومطية ومدخراً وتفننوا فيه وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له» .

وفى ذلك كله لاحظ عبد اللطيف أن أكثر المتهمين بأكل لحوم الأطفال الصغار كن من النساء وأرجع ذلك لأنهن «أقل حيلة من الرجال وأضعف عن التباعد والاستتار ولقد أحرق بمصر خاصة فى أيام يسيرة ثلاثون إمرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة» .

وقد رأى البغدادى «إمرأة مشجحة الرأس يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شؤونهم لم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره فعاد تعجبى منهم أشد وما ذاك إلا لكثرة تكرره على إحساسهم حتى صار فى حكم المألوف الذى لا يستحق أن يتعجب منه ، ورأيت قبل ذلك بيومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه» .

وزاد من قتامة صورة رمضان التى قدمها البغدادى فى هذه السنة انتشار الوباء الذى أهلك أهل القاهرة حتى خلا معظم بيوتها وانخفضت أسعار المنازل لموت السكان ، وقد فنى أغلب سكان القرى فى هذا الوباء حتى أن الأرض أقامت سنين ولم تجد من يزرعها سوى الجند وحسبما يذكر عبد اللطيف البغدادى فإن حراث الأرض كانوا غير الزراع وأن الذين أكلوا من ثمر الأرض كانوا أيضاً غير هؤلاء جميعاً لتفشى الموت .

وقد ذكر البغدادى أن إرثا تعاقب عليه أربعة عشر شخصاً بسبب توالى الوفيات خلال هذا العام.

واهتم فى نهاية كتابه بأن يبين فزع الناس وهلعهم خلال شهر رمضان سنة ٥٨٩ هـ عندما توقفت زيادة فيضان النيل «إذ انتهى إحتراقه فى رمضان وانحسر عن القياس نحو ثمانمائة ذراع «وقبل انتهاء الشهر الكريم بأربعة أيام كان القاع ذراعاً ونصفاً ولم يزد النيل إلا فى شهر ذى الحجة وأمضى الناس رمضان فى قلق وترقب بسبب ذلك .

العبدرى فى القاهرة

فى أواخر النصف الثانى من القرن السابع الهجرى . وبالتحديد فى عام ٦٨٨ هـ (١٨٩م) عزم محمد بن محمد بن على العبدرى وهو من علماء المغرب على الارتحال إلى ديار الشرق . وسجل ما رآه فى ذهابه وإيابه وإن مازالت رحلته مخطوطة إلى الآن .

وتتميز مدوناته عن القاهرة ومصر المملوكية بما هو أكثر من الصراحة . إذا لم يتخل عن ذكر مثالبها العمرانية وانتقاد السلوك الاجتماعى لسكانها . وقد بدأ العبدرى بالحديث عن الاسكندرية ، أول محطة يقصدها أهل المغرب فى ترحالهم تجاه الحجاز والشرق الإسلامى . وعادة ما يكون وصولهم إليها فى شهر رمضان ليلحقوا بمحمل الحج الذى يخرج من القاهرة فى شهر شوال . وعن هذه المدينة الساحلية القديمة يقول العبدرى «الاسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة وبلد الإشراق اللامع والطلاقة وطلاوة المنظر وحلاوة المذاقة .. مدينة فسيحة الميدان مليحة البنيان . كأنه لم يغب عنها شخص الاسكندر . مما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبر . ناهيك بمدينة كلها عجب قد ستر حسنها حسن غيرها وحجب» ثم أخذ فى وصف أهم مبانيها ولاسيما «منارها الفريد» وعرج على وصف أحوال أهلها وذكر عدداً من أهل الفضل والعلم الذين لقيهم فيها وما سمعه منهم أو ما قرأه عليهم .

وانتقل العبدرى إلى القاهرة فى أخريات رمضان . فنزل بالمدرسة الكاملية بالجمالية وهى مطلة على شارع بين القصرين أكبر شوارع القاهرة وأحفلها بالحركة وأعمرها بالأسواق . وكان أمامها حسبما يذكر المقريزى فى خططه سوق الدجاجين حيث يباع الدجاج بأنواعه وشتى أصناف الطيور المغردة ثم سوق الشماعين الذى يزدان بأصناف الشموع «الموكبية» أى الضخمة خلال شهر رمضان حتى يستحيل ليل هذا الجزء من السوق إلى نهار وتقف فيه سيدات ماهرات فى ألعاب الهواء وحركات البهلونات ولهن الخناجر فى أوساطهن ويعرفن لذلك ولشجاعتهن بزعيرات الشماعين .

وقد اهتم العبدرى بأن يعطينا إحساس المقيم ليلاً ونهاراً بهذا الجزء المزدحم من الأسواق لاسيما وأنه نزل فى المدرسة الكاملية فى علو يشرف على السوق فيقول عليه رحمة الله «فكنت قلما أرقد ألا منغصاً لصياح الباعة وهم يبيعون طوال الليل . وقلما يكون طعام الشريف منهم والوضيع إلا من السوق .. والطريق غاصة بالخلق حتى ترى الماشى فيها ما له هم سوى التحفظ من دوس الدواب إياه . ولا يمكنه تأمل شئ فى السوق لأن الخلق يندفعون فيها مثل اندفاع السيل ، وقد ضاعت لى بها دابة بسبب الزحام كان عليها شخص راكباً إياها ، فتكاثر عليه الزحام حتى أسقط عنها واندفعت فى غمار الخلق ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها» .

وأتم العبدرى صيام رمضان بالقاهرة وصلى مع أهلها صلاة العيد ، ويبدو أنه لم يلق منهم ما كان يؤمله ويرتجيه من الترحيب الواجب بالغرباء ولذا نجده يقول «ولم أر منهم يومئذ من صدر منه التأنيس بكلمة» فأثر ذلك فى نفسه وربما دفعه هذا الأمر إلى إبراز ما اعتبره من مثالب العمران فى القاهرة ونواقص أهلها أيضاً .

ولم يسلم من نقد العبدرى اللاذع سوى نهر النيل والشيخ الدمياطى . فقد أبدى العبدرى القادم من فيافى الصحراء الافريقية إعجابه بنهر النيل . فهو فى نظره «من عجائب الدنيا عذوبة واتساعاً وغلة وانتفاعاً وقد وضعت عليه المدائن والقرى ، فصار كسلك انتظم درراً» . كما أبدى استحسانه لجملة ما شاهده بمصر كالأهرام ومشاهد الحسين والسيدة نفيسة وآل البيت وتربة الإمام الشافعى بالقرافة .

ورغم كثرة المشايخ فى مصر الذين التقاهم العبدرى وسمع منهم خلال شهر رمضان إلا أنه دون العديد من الانتقادات بحق حتى أولئك المشهود لهم بغزارة العلم وذيوع الصيت .

فبعد أن قابل الشيخ ابن دقيق العيد ، ذكر العبدرى أنه رآه «حبراً كاملاً عالماً يحق له اللقاء . وبحراً من علم لا تكدره الدلاء ، له تفنن فى فنون العلوم وتسلط عليها بذهن يرد المجهول إلى المعلوم، وقلما يلقى له فى سمة المعارف نظير أو يوجد من يماثله فى صحة البحث والتنقير ، وله فى البلاد ذكر شهير ، وصيت مستطير وخطر خطير يضرب فى كل فن بسهم مصيب ويحظى منه بأوفر نصيب ... فهو الآن قطب مصر وعلمها ولولا (وآه من لولا هذه) وسوسة تصحبه وأخلاق يجل عنها منصبه ، لو كانت لها صورة كانت أشنع الصور أو تليت لها سورة كانت أبشع السور» .

أما حديثه عن العلماء الذى خلال من «لكن» و«لولا» فقد كان عن المحدث بالمدرسة الظاهرية بيبرس بالنحاسين (دثرت الآن) فيقول عنه «لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثل وأقرب إلى الإنسانية وأجمل معاملة من الشيخ عبد المؤمن بن خلف الدمياطى المحدث بالمدرسة الظاهرية وقد سمعت منه أحاديث جملة من سنن الشافعى» .

ويبدو أن الدمياطى الذى نجا وحده من نقد العبدرى قد قابل الضيف المغربى بما أمله من «إنسانية» وترحاب أهملهما سواه من المشايخ أثناء دروس رمضان .

(((

إدوارد لين فى القاهرة

قصد هذا الرحالة المستشرق مصر ليدون ما يشاهده بها خدمة للقراء الإنجليز بنى جلدته ، ولعله فى ذلك أراد ترسم خطى الدكتـور رسل RUSSEL الذى ألف كـتـاباً عن أهل حلب لاقى انتشاراً واسعاً فى الجزر البريطانية .

وقد زار «إدوارد وليم لين» مصر مرتين أولاهما كانت فى عام ١٨٢٥م والثانية فى عام ١٨٣٣م. ورغم أن هاتين الزيارتين قد وقعتا فى فترة حكم محمد على إلا أن الرحالة والمستشرق الإنجليزى قد لاحظ أن المجتمع المصرى فقد كثيراً من اتصاله الوثيق بتقاليد العصور الوسطى ولاسيما فى احتفاله بالمناسبات والأعياد وإن آلية الدولة الحديثة التى حاول محمد على تنظيمها على النمط الأوروبى قد أخذت تؤتى ثمارها فى المجتمع .

ويعد كتاب لين «المصريون المحدثون» بمثابة سفر عظيم الفائدة لكل من أراد البحث فى أحوال مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . وإن عابه بعض الشئ أن المؤلف قد أخذ الكثير من تأويلاته للأصول التاريخية للعديد من التقاليد والعادات السائدة من أفواه الذين قابلهم . ولم يحاول أن يمحص أقوالهم ربما لطرافتها التى تثير إعجاب وشغف القراء الأوروبيين .

ومما عنى لين بتسجيله ذلك الاحتفاء الشعبى بمقدم شهر رمضان بادئاً بتسجيل ما يحدث فى ليلة رؤية هلا ل رمضان . فيذكر أن نفراً من الناس يخرج إلى الصحراء لرؤية الهلال . «وتكفى شهادة المسلم الواحد أنه رأى الهلال لإعلان للصيام» .

وقد أحتفظ لنا الرحالة الإنجليزى بوصف كامل للموكب الشعبى المعروف «بموكب الرؤية» وكان يبدأ من القلعة مقر الحكم إلى مجلس القاضى بالمدرسة الصالحية النجمية بحى الجمالية بالقاهرة . ويشارك فى هذا الموكب «المحتسب ومشايخ الحرف المتعددة . الطحانين والخبازين والجزارين والقصاصين والبدالين وباعة الفاكهة ومعهم بعض أعضاء آخرين من هذه الحرف وفرق من الموسيقيين وعدد من الفقراء (المتصوفة) يتقدمهم أو تتخللهم فرق من الجنود وجرت العادة فى هذا الموكب أن تقاد خيول مسرجة بأجمل السروج . وبعد أن يصل الموكب إلى مجلس القاضى يمكث الجميع فى انتظار عودة أحد المرسلين لرؤية الهلال أو شهادة أى مسلم آخر على أنه رآه . بينما تغص الطرقات التى يمر بها المارة والمشاهدين . ذلك ما شاهده لين فى زيارته الأولى لمصر .

وعندما عاد إليها بعد سنوات لا تتعدى الثمانية لاحظ أن الموكب المدنى والدينى استبدل بأكثره

عرض عسكرى تافه» حيث صار الموكب يتكون من مشاة النظام ، ويتقدم حاملو المشاعل كل فرقة من الجنود ويتبعونها ليميزوا لهم الطريق عند العودة «ويتلوهم شيخ حرفة ما وآخرون من أتباعه ، وعدة فقراء يصيحون طوال الطريق : الصلاة . الصلاة . صلوا على النبى عليه السلام . ويفصل كل فرقتين أو ثلاث فاصل عدة دقائق ويختم المحتسب وتابعوه الموكب» .

ويبدو أن تقلص دور طوائف الحرف فى هذا الموكب . وفى الحياة قبل ذلك . عائد إلى مشروعات محمد على الصناعية التى ارتبطت بالاحتكار وإزاحة دور نقابات الحرفيين لصالح الدور المتنامى لدولة محمد على المحدثة ، وقد حضر «إدوارد لين» هذا التحول فى الفترة السابقة على انهيار حلم محمد على بعد توقيع اتفاقية لندن عام ١٨٤٠م .

وإذا ما تم التيقن من الرؤية أنطلق الجنود والمجتمعون فى الأحياء المختلفة . صائحين «يا أمة خير الأنام ! صيام صيام» . وعندما لا يرى القمر هذه الليلة يقول الجنود «غدا من شهر شعبان . فطار ! فطار» .

وكما هو الدأب دوماً فى الشهر الكريم منذ صدر الإسلام ، كانت تضاء مساجد القاهرة فتعلق المصابيح عند مداخلها وفوق شرفات المآذن . أما فى أوقات النهار فإن أهم ما اهتم «لين» بالحديث عنه هو خلو الطرقات من المارة الذين يمسكون «بشبكهم» إذ رآهم بدلا من ذلك «يحملون عصا أو مسبحة أو لا يحملون شيئاً إلى ما قبل الغروب . والكآبة البادية على الشوارع فى الصباح الباكر لإغلاق معظم الدكاكين «غير أنها تفتح جميعاً فى العصر وتزدحم كالمعتاد» .

وقد لاحظ أن المسيحيين فى زيارته الأولى للقاهرة كانوا يخشون التدخين فى حوانيتهم نهاراً على مرأى المسلمين الصائمين . ولكن بعضهم لم يعد يخشون ذلك فى زيارته الثانية .

ويسجل إدوارد لين أن كثيراً من الطبقتين العليا والوسطى يفطرون سراً . بينما يقل من لا يصومون من الفقراء . وإن عادة كبار الأتراك بالقاهرة وكثيرين غيرهم أن يقصدوا مسجد الحسين عصر كل يوم فى رمضان للصلاة والاسترخاء وفى هذا الوقت يعرض بعض التجار الأتراك الذين يسمون «تحفجية» على الناس فى ساحة الميضأة مجموعة من البضائع ذات ذوق وترف يلائمان رغبات مواطنيهم . ومعلوم أن العامة كانت تطلق كلمة «تحفجى» على بائعى المعاجين والمنازيل وهى مواد يدخل فيها الحشيش والأفيون" . ورغم ذلك فقد كان من الشائع فى القاهرة فى هذا الشهر . أن تشاهد تجاراً فى حوانيتهم يتلون القرآن أو الأدعية أو يوزعون الخبز على الفقراء .

أما عن عادات الأسر فى منازلها عند الغروب فيلخصها لين فى أن غرفة الاستقبال بمنازل الطبقتين العليا والوسطى كانت تضم صينية فيها صحاف عديدة تحوى أصنافاً مختلفة من الفاكهة المجففة (النقل) مثل البندق والزبيب والجوز واللوز والبلح والتين المجففين والبندق المسكر إلى جانب الكعك وعدة «قلل من الماء المحلي بالسكر ومعها عادة كوبة أو كوبتان زيادة على عدد الزائرين

الحاضرين ، ليشترك فى الشرب كل من يقدم على غير انتظار . وكثيراً ما تضاف قطعة من الجبن الطازج وبعض الخبز ويجهز الشبك (للتدخين) أيضاً» .

ويبدو أن المصريين آنذاك كانوا يفطرون أولا بتناول أكواب من الشراب ثم يؤدون صلاة المغرب وبعدها يتناولون بعض النقل ويدخنون الشبك . وعقب هذا الأكل الخفيف يجلسون لتناول الفطور وهو عادة من اللحم وغيره ، ثم يعقبون ذلك بشرب القهوة وتدخين الشبك قبل أن يؤدوا صلاة التراويح .

وفى حين تخلد الأسر إلى النوم قبيل منتصف الليل كان الرجال يخرجون أما إلى بعض بيوت الأصدقاء أو إلى المقاهى «للاستماع إلى أحد القاصين الذين يسلون القوم فى عدة مقاه كل ليلة من هذا الشهر» وتزدحم الشوارع بالمارة أثناء الليل وتظل دكاكين المشروبات والمأكولات مفتوحة «وهكذا ينقلب الليل نهاراً وبخاصة عند الأغنياء الذين ينام أكثرهم معظم النهار » ولا يعنى ذلك أن لحياة الليل فى رمضان وجها واحداً . فهناك أيضاً وجه آخر حيث نجد أن بعض علماء القاهرة اعتادوا إقامة «ذكر» فى منازلهم كل ليلة من ليالى رمضان وقد يدعو بعض الآخرين أيضاً أصدقاءهم ويسلونهم بإقامة ذكر أو ختمة» .

وبينما يغص قلب المدينة بحركة المارة وصخب المقاهى يجول «المسحرون» فى الحارات . فيمرون فى أول الليل ليقدموا بعض كلمات المدح والثناء أمام كل منزل يستطيع صاحبه أن يكافئهم . وفى ساعة متأخرة يجولون ليعلنوا وقت السحور . وكان الشائع آنذاك أن لكل حى أو خط مسحر خاص يسميه بازا .. وبيمينه عصا صغيرة أو سيراً (من الجلد) يضربه به ويصحبه غلام يحمل قنديلين فى إطار من الجريد» . وبعد الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم يحيى المسحر صاحب المنزل (أسعد لياليك يا فلان) ثم اخوته وأولاده وبناته الأبكار فقط قائلا فى الحالة الأخيرة (أسعد الليالى إلى ست العرايس فلانه) . ويعد ذلك بمثابة إعلان عن وجود فتاة لم تتزوج بعد فى هذا المنزل . ويحدث فى بعض الحالات أن يقوم المسحر برواية قصة المعراج أو نحوها من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ضارباً طبله بعد كل قافية . ولا يقف المسحر على منازل الحزانى «ويتناول المسحر على العموم من منزل المتوسط الطبقة قرشين أو ثلاثة أو أربعة قروش فى العيد الصغير ويعطيه البعض مبلغاً زهيداً كل ليلة» .

ولا يتوقف دخل المسحر عند هذا المعلوم الضئيل القيمة ، بل يزيد غالباً عن ذلك نتيجة أن بعض نساء الطبقة المتوسطة كن يعمدن إلى وضع نقد صغير فى ورقة ويقذفن بها من النافذة إليه بعد أن يشعلن الورقة ليرى المسحر مكان سقوطها . «فيقرأ الفاتحة بناء على طلبهن أحياناً أو من تلقاء نفسه ويروى لهن قصة قصيرة فى سجع غير موزون ليسليهن ، مثل قصة الضرتين وهى قصة مشاجرة إمرأتين متزوجتين رجلاً واحداً وبعض ما يرويه فى هذه المناسبات بذئ . ويستمع إليه مع ذلك النساء فى المنازل الحسنة السمعة» .

ويظهر أن الإذاعة المصرية قد استوحت فى منتصف هذا القرن دور قاص المقهى والمسحر وهى تبث فقرة المسلسل الرمضانى فى برامجها خلال هذا الشهر .

أما الاحتفال بعيد الفطر فقد لاحظ إدوارد لين أن الناس بعد خروجهم من صلاة العيد يتعانقون مهنئين ويتزاورون للتهنئة بالعيد . «ويلبس البعض حتى من الطبقة الدنيا ملابس كاملة جديدة ويكاد الكل يلبسون شيئاً جديداً ولو حذاء فقط» .

ويأكل أهل القاهرة فى أول أيام العيد . كما هو شأنهم قديماً وحديثاً ، السمك المملح (الفسيخ) والكعك . وكانت لهم فى هذا اليوم أكلة يذكرها لين باسم المزرة وقد اختفت الآن وهى تتكون من اللحم والبصل والدبس والخل والدقيق الخشن» .

ومن العادات «القديمة الجديدة» التى كانت معروفة بمصر فى هذا الوقت خروج أفراد العائلات (وخاصة النساء) لزيارة مقابر أقاربهم ويحملون معهم السعف والريحان فضلا عن الكعك والشريك والفطير والبلح وقد يبيت البعض بالقرافة ليوم أو أكثر بهذه المناسبة . وقد لفت نظر «إدوارد وليم لين» ازدحام مقابر «باب النصر» إلى شمال القاهرة بالزوار وكثرة الخيام المعدة بها لإقامتهم .

وفيما عدا تلك المظاهر فلم يسترع انتباه لين فى أيام العيد سوى إغلاق «أغلب حوانيت العاصمة ما عدا حوانيت المأكولات والمشروبات غير أن الشوارع تظهر لحشد المارة فى ملابس العيد فى منظر بهيج» .

(((

محمد السنوسى فى الاستانة

ولد محمد بن عثمان بن محمد السنوسى بحاضرة تونس فى الثانى والعشرين من ذى القعدة عام ١٣٦٧ هـ (١٨ سبتمبر ١٨٥١م) ونشأ فى بيت علم فدرس بجامع الزيتونة وتخرج فيه ليعمل مدرساً ثم ألتحق بوظائف حكومية متعددة ورعى إصدار جريدة «الرائد» . وعندما فرضت الحماية الفرنسية على تونس تعلل السنوسى بالحج لمغادرة البلاد بعد أن منعته السلطات المحلية من ذلك . وقد دون مشاهداته فى هذه الرحلة ضمن كتاب صدر فى ثلاثة أجزاء تحت اسم «الرحلة الحجازية» .

وقد حضر محمد السنوسى رمضان فى الاستانة عاصمة الخلافة العثمانية سنة ١٢٩٩ ه (١٨٨٢م) . وإن أدركته أول أيام الشهر وهو فى ميناء نابولى بإيطاليا ثم وهو بباخرة ضخمة تابعة لشركة الساجرى عبرت به المتوسط باتجاه القسطنطينية . ويذكر السنوسى أنه التزم على ظهر الباخرة «ترك ما يأتون به من الخمر وآنيته الملازمين للطعام» فأظهر له القبطان تعجبه من ذلك مشيراً إلى أن كثيراً من المسلمين معه يقولون أن القليل من الخمر غير ممنوع ولذا فهم يتناولون مقدار أربعة أصابع من آنية الخمر . فرد عليه السنوسى بأن «هذه الخمر عصير عنب وهى فى ديننا محرم كثيرها وقليلها والقائلون بجواز ذلك القليل لم يريدوا إلا إقناع السائل تستراً من إظهار المجاهرة بارتكاب المحرم» .

وقد نزل السنوسى القسطنطينية فى سادس شهر رمضان وتلقاه فى بوغازها وكيل التوانسة السابق التاجر عمر راوى ومحمد العمادى بيرم والمرعى العربى بسيس وجميعهم من أهل بلده . ويصف ابن تونس ، ككل زائر للمدينة جمالها الأخاذ بعد «أن أسدل الليل رواقه واتقدت مآذن المدينة وأسواقها» إذا رآها فى أبهج المناظر الليلية ، وذكر أن عدد سكانها يصل إلى المليون والنصف آنذاك منهم نحو المليون من المسلمين .

ولما كان الرحالة السنوسى قد أقام مدة فى إيطاليا قبل السفر وهو لا يسمع إلا «قرع النواقيس قرعاً يغتم منه القلب» فقد حرص على أن يخرج لصلاة العشاء بأقرب الجوامع من بيت مضيفه محمد بيرم «فكان دخولى تلك الليلة لجامع بشكطاس من ألذ ما لاقيته فى تلك المدينة العظمى . وكان وقع تلاوة القرآن من قراء المحفل ثم من الإمام أعظم المواقع في نفسى» .

ووقع من الرحالة التونسى الاهتمام بزيارة معالم القسطنطينية ، فذهب خلال شهر رمضان لزيارة ضريح أبى ايوب الأنصارى وهو صحابى شهد مع النبى صلى الله عليه وسلم المغازى وحضر واقعة صفين مع على (رضى الله عنه) وخرج فى غزو القسطنطينية سنة ٤٨ ه حين كان شيخاً هرماً وتوفى

هناك فأمر يزيد بن معاوية أن يدفن عند سورها فأصبح مدفنه أعظم مزار بتلك المدينة وحوله جامع بهيج من أشهر جوامعها خطيبه جلال الدين أفندى» .

وزار محمد السنوسى أيضاً جامع أيا صوفيا وأورد وصفاً دقيقاً لعمارته ، وقد وقعت له عند دخوله لهذا الجامع حادثة طريفة تعكس حالة الشقاق المذهبى التى وسمت تلك الفترة . فعند قيامه لصلاة ركعتى تحية المسجد قبل صلاة العصر أسدل يديه جرياً على عادة المالكية من أهل المغرب فحدث لغط فى الجامع وهمهمات وبعد فراغه من الصلاة قام إليه شيخ مسن يعرف القليل من العربية فسأله عن بلاده ومذهبه فأعلمه أنه مغربى تونسى وأنه أسدل يديه فى الصلاة لأن ذلك مشهور فى مذهب مالك «فقال للمنتظرين له ممن حولنا : مذهب مالكى سنى» والتفت إلى السنوسى موضحاً أن سدل اليدين عندهم معروف للشيعة ولذلك تشوش الجماعة . وعندئذ تذكر السنوسى أن مالكاً قبض فى الصلاة وأن فقهاء المالكية ذكروا أنه لا بأس من القبض عند الضرورة أو خوف التشويش «ومن ذلك الوقت رجعت إلى القبض فى الصلاة مدة إقامتى بالاستانة» . وعندما حضر السلطان للصلاة فى جامع أحمد الثالث لاحظ أن الموفد التونسى يقبض فى صلاته فأستفسر عن سر ذلك وهو يعلم أنه على مذهب مالك فروى السنوسى قصته وترجمها الشيخ محمد ظافر للسلطان .

وتكاد مشاهدات السنوسى فى رمضان القسطنطينية قصراً على المساجد وما يجرى فيها خلال الشهر الكريم ، مثل استحسانه لعادات المصلين فى أن لا يدخلوا أنعلتهم إلى بيت الصلاة . إذ للأنعلة حفظة عند الأبواب لهم خزائن يحفظون بها الأنعلة ، وبرر ذلك بأن الفقهاء قد كرهوا «دخول النعل غير المأمونة من النجاسة إلا للضرورة . وقد دفعت الضرورة عادة البلاد العثمانية» .

وقد أعجب محمد السنوسى أيضاً بمجالس دراسة التفسير والحديث والوعظ التى تعقد فى جامع أيا صوفيا بعد صلاة العصر فى كل يوم من رمضان وكان بعض هذه المجالس يختص بالنساء فيجلسن «داخل سياج حافظ لهن ويجلس المدرس وراء السياج فيقهرئن ولا يحضر عليه أحد من الرجال» .

ولما كان رحالتنا التونسى قد زار القسطنطينية وهى توشك أن تنهى استدارتها الكاملة باتجاه أوروبا فقد هاله ما يحدث فى تلك الدروس الدينية من أخطاء مرجعها إلى عدم حفظ القرآن أو قلة الدراية باللغة العربية .

فقد وقف على درس أحدهما فإذا هو يتلو قوله تعالى : (وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) (سورة الجن – الآية ١٨) فقرأ فلا تعبدوا مع الله أحداً ، فعاجله السنوسى بتلقين الآية فلم يقبل وأخذ يقرر معناها باللغة التركية إلى أن وصل لتعبدوا فذكر مصدر العبادة العربى وأخذ يفسر العبارة بذلك «فأعدت تنبيهه فتكلم بالتركى ولم أفهم ما قال سوى أن رجلاً عالماً كان بمقربة منا وكان يسمع جميع ذلك فقام إليه وصاح به وتكلم معه بالتركى وأرجعه» . وبعد ذلك قال هذا العالم للسنوسى «إن دروس رمضان لا يقرئها العلماء فى بلادنا ووصف الرجل بالجهل» . ومع ذلك فقد

لاحظ محمد السنوسى أن هذا العالم التركى كانت معرفته بالعربية قليلة وغاية ما أستفدت منه أن المدرس تلا عبارة التفسير فى مقام تلاوة الآية .

وبهذه المناسبة تذكر السنوسى ما أخبر به الشيخ محمود قابادو وهو تونسى أيضاً من أنه سمع مدرساً بالأستانة وهو يخطئ فى أحرف اللغة العربية خطأ فاحشاً وهو يقرأ أحد أبيات الشعر العربى وعقب على ذلك قائلا بأن «الجهل يتوارث فى الأمم إذا لم يوجد فيها ما يرفعه» .

ويبدو أن مثل تلك الأخطاء كانت شائعة بين رجال الدين الاتراك حتى وإن أحسنوا العربية مثل خطيب جامع نورى عثمان وهو «سليمان أفندى» الذى تلعثم فى ذكر معنى الأغتسال ونطق كلمة الغسل على غير ما هو مشهور فى نطقها «وقد بلغنى عنه أنه إذا أخطأ فى رواية حديث أو نقل مسألة يعتذر بأنه يقول ذلك باللسان العربى والحاضرون لا يفهمون ما يقول وبذلك لا يرى من حرج فيما يأتى به» وقد عاين السنوسى جامع للسلطان بايزيد وذكر أن باحاته فى شهر رمضان أسواق للتحف والحلويات .

أما صلاة العيد فقد أداها فى الجامع السلطان سليمان (السليمانية) ، وهو أكبر من آيا صوفيا وخطيبه اسمه مصطفى أفندى» . وبمناسبة العيد تحدث السنوسى عن مسارح الاستانة (التياتروات) المعدة لضرب الآلات ورقص الغانيات وتشخيص المضحكات . وهنالك تسمع النغمات التركية وتوجد رائعات الجمال من بنات الروم والأرمن وتشاهد المشاهد المضحكة فى تشخيص الروايات الصحيحة وموضوعات النوادر المسلية للتربية والطرب على قاعدة ما وضعه العرب من الروايات التى يعبر عنها بحديث خرافة ما وضعه على ألسنة العجميات مما حوى نوعه كتاب كليلة ودمنة» . وشتان الفارق بين حال الاحتفالات الشعبية بالعيد عند زيارة الفرنسى نرفال للمدينة قبل حوالى نصف قرن وبين ما عاينه السنوسى من مظاهر أوروبية أقصت خيال الظل أو القراقوز عن مكانه العتيد التليد فى قلوب واهتمامات عامة الشعب .

ويقف وصف السنوسى لملابس السيدات عند النزهة فى أيام العيد دليلا ناصعاً على أن ما جاء به آتاتورك بعد ذلك من تحول كامل نحو أوروبا لم يكن سوى تتويج لظواهر كانت آخذة بالتنامى وأين نقاب السيدات الشفاف الذى شاهده السنوسى من النقاب الذى تحدث عنه نرفال قبل خمسين عاماً ، حتى أن الحكومة كثيراً ما كانت تصدر الأوامر للنساء باستعمال الخمار الصفيق فلم تبلغ الحكومة من ذلك مقصدها فكأن طريقة النساء الروم بقيت عليها نساء الترك» .

❨ ❨ ❨

المحتويات

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية
للإعلام والنشر

مخابرات ومخدرات	شفيق أحمد على
المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد على
القدس بين الغزو الصليبى والاستيطان الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
الماسونية	خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
الصهيونية السياسية	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
يهود يحاربون إسرائيل	ياسر حسين
السلام الفتاك	محمد خليفة
البديل الإسرائيلى للعروبة	سيد زهران
مشروع للانتحار القومى !	مصباح قطب
غزة أريحا - المأزق والخلاص	عبدالقادر ياسين
غزة أريحا - التسوية المستحيلة	چورج المصرى
صفقة التسوية الأردنية الإسرائيلية	د. السيد عوض
سلام أم استسلام	د. أحمد الصاوى
أوهام السلام	عبدالخالق فاروق
بروتوكولات حكماء صهيون	
التلمود	
التناقض فى تواريخ وأحداث التوراة	محمد قاسم
القوة العسكرية الإسرائيلية	جمال الدين حسين
سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر «إغراق إيلات»	جمال الدين حسين
الإختراق الإسرائيلى للزراعة فى مصر	صلاح بديوى
إختراق الأمن الوطنى المصرى	عبدالخالق فاروق
المياه العربية بين بوادر العجز ومخاطر التبعية	عبدالله مرسى العقالى
من يحمى عروش الخليج (النفط والتبعية)	د. أحمد ثابت
إعدام صحفى	سعيد حبيب
الكرامة الضائعة فى الصحراء أزمة الإنتماء فى مصر	حمادة إمام
أزمة الانتماء فى مصر	عبدالخالق فاروق

مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
التطرف الدينى ومستقبل التغيير فى مصر	عبدالخالق فاروق
كارثة المعونة الأمريكية	جمال غيطاس
العلاقات الليبية - الأمريكية	د. السيد عوض
بان أمريكان١٠٣ (اتهام ليبيا أم اتهام أمريكا)	مجموعة مؤلفين
حلايب.. نزاع الحدود بين مصر والسودان	أحمد محجوب
الإخوان والعسكر	حيدر طه
القوى الخارجية فى السودان	د. السيد فليفل
نظم الحكم العنصرية فى جنوب أفريقيا	د. السيد فليفل
الشيشان	عمرو ناصف
القصص الشعبى فى مصر	إعداد:خيرى عبد الجواد
إغاثة الأمة فى كشف الغمة	
الفاشوش فى حكم قراقوش	
الحكمة المدنية	
صور من رمضان	د . أحمد الصاوى
كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	د. أحمد الصاوى
النقود الإسلامية فى مصر	د. رأفت النبراوى
المرأة التى أحبها عبد الناصر	شفيق أحمد على
عبد الناصر .. والإخوان	سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم
عبد الناصر .. هذا المواطن	سليمان الحكيم
برلنتى والمشير (القصة الحقيقية)	سيد زهران
عبود الزمر .. حوارات ووثائق	أحمد رجب
اعترافات الأميرة جيهان	ماجدى البسيونى
الأعشاب الطبية	د. موسى الخطيب
الجنس والشباب الذكى	كولن ولسون ترجمة : أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس	جارى جوردون ترجمة زينات الصاغ
الصوت والضوضاء	د مصطفى عبدالمطلب
ماهى السينما	صلاح أبو سيف

قضايا المونتاج المعاصر	د. عفت عبد العزيز
عزة فى الفضاء (أطفال)	أم كلثوم إبراهيم
مهرجان (سلسلة للأطفال والفتيان)	أحمد زرزور/ممدوح طلعت
العصفور (سلسلة للأطفال والفتيان)	أحمد زرزور/محمد فرح
البديل الناصرى (قراءة أوراق التنظيم)	سيد زهران
عن الناصرية والناصريين	مجدى رياض
الأقليات التاريخية فى الوطن العربى	د.أحمد الصاوى
الناصرية والتاريخ	سيد حسان
الناصرية ..الأيديولوجيا والمنهج	سيد زهران
التنمية المستقلة فى النموذج الناصرى	جورج المصرى
فلسطين الانتفاضة..جدل الوطن والأمة	د. أحمد ثابت
كاريزما الزعامة الناصرية	د. السيد الزيات
الناصرية والتجديد	مجدى رياض
النص والسياسة فى الإسلام	صالح الوردانى
الحركة الإسلامية فى مصر الواقع والتحديات	صالح الوردانى
الحركة الإسلامية فى مصر واقع الثمانينات	صالح الوردانى
المسيح فى الإسلام	ترجمة عادل حامد
الحكومة والسياسة فى الإسلام	طارق وجاكلين إسماعيل ترجمة : سيد حسان
الوجيز فى بداية التكوين	عبد العزيز محمد ، مصطفى الخولى
رسالة التوحيد للإمام محمد عبده	تحقيق د.محمد عمارة
الإسلام والعروبة	مجدى رياض
كيف تقرأ القرآن	محمد محمود عبدالله
كيف تجود القرآن	محمد محمود عبدالله
التربية الإسلامية	محمد محمود عبدالله
القرآن : حل مشاكل الأمة	محمد محمود عبدالله
قبس من نور الأسماء	محمد محمود عبدالله
نظرات فى نزول القرآن علي سبعة أحرف	محمد محمود عبدالله
مطربة الغروب (قصص قصيرة)	جمال الغيطانى
مخلوقات الأشواق الطائرة (قصص قصيرة)	إدوار الخراط

حرب بلاد نمنم (قصص قصيرة)	خيري عبدالجواد
حكايات الديب رماح (قصص قصيرة)	خيري عبدالجواد
هذه الليلة الطويلة (مسرحية)	د أحمد صدقي الدجاني
ليس هناك ما يبهج (قصص قصيرة)	عبده خال
لا أحد (قصص قصيرة)	عبده خال
مملكة القرود (مسرحية)	محمود عبدالحافظ
أحزان رجل لا يعرف البكاء (قصص قصيرة)	خالد غازى
الشاعر والحرامي (قصص قصيرة)	عزت الحريري
رشفات من قهوتي الساخنة (قصص قصيرة)	محمد محي الدين
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
قصائد حب عراقية	البياتي وآخرون
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولي
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
صلاة المودع	صبري السيد
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطي
إذهب قبل أن أبكى	د. لطيفة صالح
اللعبة الأبدية ...	محمد الفارس
غربة الصبح	محمد الفارس
الغربة والعشق	مجدي رياض
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
العجوز المراوغ يشد أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لي	نادر ناشد
في مقام العشق	نادر ناشد
ندى على الأصابع	نادر ناشد

خدمات إعلامية وثقافية "إشتراكات"

ملخصات الكتب : عرض وتلخيص لأهم الكتب السياسية والفكرية ، العربية والعالمية .

وثـائـق : تتناول نشاطات ووثائق الأحزاب والقوى السياسية في الوطن العربي.

النشرة الدولية : تتناول ما ينشر في الدوريات الأجنبية .

دراسات عربية : دراسات وأبحاث وملفات متخصصة ،تحليل سياسي لأهم الأحداث .

معلومات - ملفات صحفية موثقة : لكافة القضايا والموضوعات.

الآراء الواردة بالإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

المؤلف فى سطور

- دكتور أحمد السيد محمد الصاوى
- مدرس بكلية الآثار جامعة القاهرة
- للمؤلف

* مجاعات مصر الفاطمية	دار التضامن ، بيروت ، ١٩٨٨
* الأقليات التاريخية فى الوطن العربى	مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٠
* كشف المستور من قبائح ولاة الأمور	مركز الحضارة العربية ١٩٩٤
* رمضان .. زمان	مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٧

- تحت الطبع

* المساجد الألفية فى الإسلام	مركز الحضارة العربية
* معالم فى تاريخ حضارة أسيا الوسطى	مركز الحضارة العربية
* النقود المتداولة فى مصر العثمانية	مركز الحضارة العربية
* سلام أم استسلام	مركز الحضارة العربية

رمضان .. زمان

لشهر رمضان رونقه وبهجته أينما حل فى بلاد المسلمين ، وعلى الرغم من أنه شهر لفريضة هى بين العبد وربه ، لا يعلمها إلا هو ونعنى بها فريضة الصوم ، إلا أنه وحده بين الشهور الهجرية الذى يحفل بالمظاهر الاحتفالية .

ففى كل ديار الإسلام يحرص المسلمون على زيادة الإضاءة حتى أن المؤرخ المقريزى ينعت ليالى رمضان بأنها "ليالى الوقود" ، ولا يقارب هذه الظاهرة فى الانتشار سوى عادة مد الولائم فى بيوت أهل الكرم ، وهاتين الظاهرتين هما فى حقيقة الأمر القاسم المشترك الأعظم فيما بين المسلمين أينما عاشوا خلال الشهر الكريم .

والقاهرة من بين حواضر الإسلام ، مدينة ولدت بها وترعرعت بعض من أهم المظاهر الاحتفالية فى رمضان وربما يعود الفضل فى الاحتفاظ بحيويتها وتحويلها إلى عادات مرعية لخلافة الفاطميين التى رعت هذه المظاهر بوصفها من رسوم الدولة .

ومعلوم أن المصريين ينظرون منذ أمد بعيد إلى رمضان بوصفه شهرا ينقسم إلى ثلاثة أقسام بحسب الاهتمام الغالب على أنشطة الناس خلالها ، فالعشر الأول من أيام هذا الشهر هى "للمرق" أى للعناية بالموائد والأطعمة ، والتالية لها "للخرق" أى لشراء ملابس العيد أما العشر الأواخر فهى لكعك العيد الذى تتنافس الأسر فى صناعته .

وينقسم هذا الكتاب إلى جزئين مميزين ، يحوى الأول منهما موضوعات تتصل بالمظاهر الرمضانية الضاربة بجذورها فى أعماق تاريخنا بينما يشمل الثانى تلخيصا وافيا لبعض كتابات الرحالة الذين تصادف وجودهم فى رمضان ببعض ديار الإسلام ، وقد عنى هؤلاء بوصفهم غرباء طارقين بسرد أهم المظاهر التى استلفتت نظرهم فى البلاد التى ارتحلوا إليها أثناء شهر رمضان .

والذى لا شك فيه أن القارئ سيلمح دون كبير عناء أن رمضان اليوم هو إلى حدٍ كبير "رمضان زمان" رغم كل تعقيدات الحياة ومحاولات المسخ الحضارى التى تشنها حضارة الغرب على أمة الاسلام قاطبة، وكأن رمضان هو قائد المقاومة وروحها فى هذه الأمة .. أهلا رمضان .

الناشـــــر

مركز الحضارة العربية